

تَفْسِيرُ الْمُرَاغِي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء الثاني والعشرون

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الثاني والعشرون

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا
مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

يقنت : أى يخشع ويخضع ، وأعتدنا : هيأنا وأعددنا ، كريماً : أى سالماً من كل آفة وعيب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر زيادة عقابهن إذا أتين بفاحشة مبينة ، أتبعه بذكر ثوابهن إذا هن عملن صالح الأعمال — مع ما هيأه لهن من الرزق الكريم فى الدنيا وفى الآخرة ، فى الدنيا يوفقن إلى إتيان ما يرزقن على وجه يكون لهن فيه عظيم الأجر والثواب ولا يخشين من أجله العقاب ، وفى الآخرة يرزقن ما لا يحد ولا يوصف من غير نكد ولا كدر .

الإيضاح

(ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتيها أجرها مرتين) أى ومن تطع منكن الله ورسوله وتعمل صالح الأعمال نضاعف لها الأجر والثوبة ، لكرامتها علينا بوجودها في بيت النبوة ومنزل الوحي ونور الحكمة وعين الهداية .

(وأعبدنا لها رزقا كريما) أى وزيادة على هذا أعدنا لها الكرامة في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فلأنها تكون مرموقة بعين الغبطة لدى نساء العالمين ، ومنظورا إليها نظرة المهابة والإجلال ، وأما في الآخرة فلما لها من رفيع الدرجات ، وعظيم المنازل عنده تعالى في جنات النعيم .

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ
وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِنَّ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)

شرح المفردات

أصل أحد وحَد بمعنى الواحد وهو في النقي عام للمذكر والمؤنث ، والواحد والكثير : أى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء ، فإذا استقرئت أمة النساء جماعة جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والمساواة ، والاتقاء بمعنى الاستقبال ، وهو بهذا المعنى معروف في اللغة قال النابغة :

سقط النصف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقنتا باليد

أى استقبلتنا باليد قاله أبو حيان فى البحر، ومنه قوله تعالى : «أَفَنَنْتَقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ». فلا تخضعن بالقول : أى فلا تجبن بقول خاضع لئن، أى إذا استقبلتن أحدا فلا تلن الكلام ولا ترققنه ، مرض : أى ريبة وفجور ، قولاً معروفاً : أى حسناً بعيداً من الريبة غير مُطْمَع لأحد ، قرن ، من قرَّ يقرَّ من باب علم وأصله اقرن دخله الحذف ، والتبرج : إبداء المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره ، والجاهلية الأولى : هى الجاهلية القديمة جاهلية الكفر قبل الإسلام ، وهناك جاهلية أخرى هى جاهلية الفسوق فى الإسلام ، والرجس : فى الأصل الشئ القذر ؛ والمراد به هنا الإثم المندس للعرض ، واذكرن ما يتلى فى بيوتكن : أى وعظن الناس بما يتلى فى بيوتكن ، وآيات الله : هى القرآن ، والحكمة : هى السنة وحديث الرسول .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما اختص به أمهات المؤمنين من مضاعفة العذاب والثواب ، أردف ذلك ببيان أن لهن مكانة على بقية النساء ، ثم نهاهن عن رخامة الصوت ولين الكلام إذاهن استقبلن أحداً حتى لا يطمع فيهن من فى قلبه نفاق ، ثم أمرهن بالقرار فى بيوتهن ونهاهن عن إظهار محاسنهن كما يفعل ذلك أهل الجاهلية الأولى ، ثم أمرهن بأهم أركان الدين ، وهو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله فيما يأمر وينهى ، لأنه تعالى أذهب الآثام عن أهل البيت وطهرهم تطهيراً ، ثم أمرهن بتعليم غيرهن القرآن وما يسمعه من النبى صلى الله عليه وسلم من السنة .

الإيضاح

(يا نساء النبى لستن كأحد من النساء) أى يا نساء النبى إذا استقصيت النساء جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والكرامة .
والخلاصة — إنه لا يشبهكن أحد من النساء ولا يلحقكن فى الفضيلة والمنزلة .

(إن اتقيتين فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً) أى إذا استقبلتن أحداً من الرجال فلا ترققن الكلام فيطمع فى الخيانة من فى قلبه فساد وريبة من فسق وتفاق ، وقلن قولاً بعيداً عن الريبة غير مطمع لأحد .

وتفسير الانتقاء بهذا المعنى أبلغ فى مدحهن ، إذ لم يعلق فضلهن على التقوى ، ولا نهين عن الخضوع بها ، إذ هن متقيات لله فى أنفسهن ، والتعليق يقتضى بظاهره أنهن لسن متحليات بالتقوى قاله فى البحر ، وقال فى الكشاف : إن المعنى إن أردتن التقوى ، أو إن كنتم متقيات اه ، يريد إن اتقيتين مخالفة حكم الله تعالى ورضاً برسوله صلى الله عليه وسلم .

وإجمال هذا — خاطبن الأجانب بكلام لا ترخيم فيه للصوت ولا مخاطبتهم كما مخاطبن الأزواج .

ولما أمرهن بالقول المعروف أتبعه بذكر الفعل فقال :

(وقرن فى بيوتكن) أى والزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة ، وهو أمر لهن ولسائر النساء ، أخرج الترمذى والبخارى عن ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن المرأة عورة فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون من رجة ربها وهى فى قعر بيتها » .

(ولا تهرجن تبرج الجاهلية الأولى) أى ولا تبدلين زينتك ومحاسنك للرجال كما كان النساء يفعلن ذلك فى الجاهلية قبل الإسلام .

وبعد أن نهاهن عن الشر أمرهن بالخير فقال :

(وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) أى وأدبن الصلاة على الوجه القيم المعترف شرعاً ، وأعطين زكاة أموالكن كما أمركن الله .

وخص هاتين العبادتين بالذكر لما لهن من كبير الآثار فى طهارة النفس وطهارة المال ،

وأطعن الله ورسوله فيما تأتين وما تذرن واجعلن نصب أعينكن اتباع الأوامر وترك النواهي ..

ثم ذكر السبب في هذه الأوامر والنواهي على وجه عام فقال :
(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) أى إنما يريد الله ليذهب عنكم السوء والفحشاء يا أهل بيت الرسول ويطهركم من دنس الفسق والفجور الذى يعلّق بأرباب الذنوب والمعاصي .

وأهل بيته صلى الله عليه وسلم من كان ملازما له من الرجال والنساء والأزواج والإماء والأقارب ، وكلما كان المرء منهم أقرب وبالنبي أخص وأزّم كان بالإرادة أحق وأجدر ، وعن ابن عباس قال : « شهدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أشهر يأتى كل يوم باب على بن أبى طالب عند وقت كل صلاة فيقول : السلام عليكم ورحمة الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ، الصلاة يرحمكم الله ، كل يوم خمس مرات » .

ثم بين ما أنعم به عليهن من أن يبوتن مهابط الوحي بقوله :
(واذا كن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) أى واذا كن نعم الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله وما ينزل على الرسول من أحكام الدين ولم ينزل به قرآن ، فاحمدن الله على ذلك واشكرنه على جزيل فضله عليكن . ولا يخفى ما في هذا من الحث على الانتهاء والاثمار فيما كُلفنّه ، كما لا يخفى ما في تسمية ما نزل عليه من الشرائع بالحكمة ، إذ فيه الحكمة في صلاح المجتمع في معاشه ومعهاده ، فمن استمسك به رشّد ، ومن تركه ضلّ عن طريق الهدى ، وسلك سبيل الردى .

(إن الله كان لطيفا خبيرا) أى إن الله كان ذا لطف بكنّ ؛ إذ جعلكن في البيوت التى تتلى فيها آياته وشرائعه ، خبيرا بكنّ إذ اختاركن لرسوله أزواجا .

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ
وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِعِينَ وَالصَّائِعَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ
وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٥)

شرح المفردات

الإسلام : الانقياد والخضوع لأمر الله ، والإيمان : التصديق بما جاء عن الله من
أمر ونهى ، والقنوت : هو الطاعة في سكون ، والصبر : تحمل المشاق على المكاره
والعبادات والبعد عن المعاصي ، والخشوع : السكون والطمأنينة ، أعد الله لهم مغفرة :
أى هيأ لهم مغفرة تمحو ذنوبهم ، وأجرا عظيما : أى نعيما عند ربهم يوم القيامة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه نساء نبيه صلى الله عليه وسلم بأشياء ونهاهن عن أخرى ،
ذكر هنا ما أعد للمسلمين والمسلمات من الأجر والكرامة عنده في الدار الآخرة ،
روى أحمد عن عبد الرحمن بن شعبة قال : «سمعت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم
تقول : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟
قالت فلم يرعنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر ، وأنا أسرح رأسى فلففت شعرى
ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن فجعلت سمعى عند الجريد فإذا هو يقول على المنبر
يأيها الناس إن الله يقول فى كتابه : (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات -
إلى قوله : أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) .

الإيضاح

ذكر الله سبحانه الأوصاف التي يستحق بها عباده أن يمجو عنهم زلاتهم
ويثيبهم بالنعيم المقيم عنده وهي :

(١) إسلام الظاهر بالانقياد لأحكام الدين في القول والعمل .
(٢) إسلام الباطن بالتصديق التام والإذعان لما فرض الدين من الأحكام
وهذا هو الإيمان .

(٣) القنوت وهو دوام العمل في هدوء وطمأنينة كما قال : « أَمَّ مَنْ هُوَ قَائِتٌ آنَاءَ
الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ؟ » وقال : « يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي
لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » .

فالإسلام والانقياد مرتبة تعقبها مرتبة الإذعان والتصديق وينشأ عن مجموعهما
القنوت والخشوع .

(٤) الصدق في الأقوال والأعمال ، وهو علامة الإيمان كما أن الكذب أمانة
النفاق ، فمن صدق نجا ، وفي الحديث « عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر وإن البر
يهدى إلى الجنة ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور
يهدى إلى النار » .

(٥) الصبر على المسكاره وتحمل المشاق في أداء العبادات وترك الشهوات .

(٦) الخشوع والتواضع لله تعالى بالقلب والجوارح ابتغاء ثوابه وخوفا من عقابه
كما جاء في الحديث « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(٧) التصديق بالمال والإحسان إلى الخواص الذين لا كسب لهم ولا كاسب ،
وقد ثبت في الصحيح « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل تصدق
بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » وفي حديث آخر « والصدقة تطفي
الخطيئة كما يطفى الماء النار » .

(٨) الصوم فإنه من أكبر العون على كسر الشهوة كما روى ابن ماجه من قوله صلى الله عليه وسلم «والصوم زكاة البدن» أى إنه يزكيه ويطهره من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً ، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم « يا معشر الشباب من استطاع منكم البائة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

(٩) حفظ الفروج عن المحارم والآثام كما جاء فى الآية الأخرى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، مَن ابْتِغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » .

(١٠) ذكر الله ذكراً كثيراً بالأسنة والقلوب ، روى عن مجاهد أنه قال : لا يكتب الرجل من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله تعالى قائماً وقاعدا ومضطجعاً . وأخرج النسائى وابن ماجه وأبو داود وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصلياً ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سبق المفردون ، قالوا وما المفردون ؟ قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » وروى أحمد عن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن رجلاً سأله فقال : أى المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم أكثرهم لله تعالى ذكراً ، قال فأى الصائمين أكثر أجراً ؟ قال صلى الله عليه وسلم أكثرهم لله عز وجل ذكراً ، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثرهم لله ذكراً . فقال أبو بكر لعمر بنى الله عنهما : ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال صلى الله عليه وسلم : أجل » .

هؤلاء الذين جمعوا هذه الأوصاف يمحو عنهم ذنوبهم ويؤتيهم الأجر العظيم فى جنات النعيم .

قصة زينب بنت جحش

زواجها لزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طلاقها منه ،
زواجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لإبطال عادة جاهلية ، وهى إعطاء المتبنى حكم
الابن فى حرمة زواج امرأته بعد طلاقها .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ
لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ
زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ
أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ، وَكَانَ أَمْرُ
اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ
اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ
يُكَلِّمُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ
حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ
وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)

شرح المفردات

تقول ما كان لفلان أن يفعل كذا : أى لا ينبغي له ، والخيرة : الاختيار ، مبيناً :
أى ظاهر الانحراف عن سنن الصواب ، أنعم الله عليه : أى بالإسلام ، وأنعمت عليه :

أى بالعتق ونيل الحرية ، واتفق الله : أى فى أمرها ولا تطلقها ضاررا ، وتحشى الناس : أى تخاف من اعتراضهم وقولهم إن محمدا تزوج امرأة ابنه ، والوطر : الحاجة ؛ والمراد أنه لم يبق له بها حاجة الزوجية فطلقها ، زوجنا كها : أى جعلناها زوجة لك ، والخرج : المشقة ، فرض له : أى قدر من قولهم فرض للجند كذا أى قدر لهم ، سنة الله : أى سن الله ذلك سنة ، خلوا : أى مضوا ، قدرا مقدورا : أى مقضيا وكائنا لا بد منه .

المعنى الجملى

بعد أن أسر الله نبيه أن يخير زوجته بين البقاء معه والتسريح سراحا جميلا وفهم من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يريد ضررا لغيره ، فمن كان ميله إلى شيء ممكنه منه وترك حظ نفسه لحظ غيره — ذكر هنا أن زمام الاختيار ليس بيد الإنسان فى كل شيء كما أعطى ذلك للزوجات ، بل هناك أمور لا اختيار لمؤمن ولا مؤمنة فيها وهى ما أحكم الله فيه ، فما أمر به فهو المتبع ، وما أراد النبي صلى الله عليه وسلم فهو الحق ، ومن خالفهما فقد ضل ضلالا مبينا .

وقد نزلت هذه الآيات فى زينب بنت جحش بنت عمه النبي صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب وقد خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم على مولاد زيد ابن حارثة فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فنزل : وما كان لمؤمن ولا مؤمنة الخ فلما نزلت قالوا رضينا يا رسول الله فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهما وخمارا وملحفة ودرعا وإزارا وخمسين مِداً من طعام وثلاثين صاعا من تمر .

والحكمة فى هذا الزواج الذى لم يبال فيه النبي بإباء زينب ورغبتها عن زيد ، أن التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمرا تدين به العرب وتعدده أصلا ترجع إليه فى الحسب والشرف ، وكانوا يعطون الدعى جميع حقوق الابن ويُجْزَوْنَ عليه الأحكام التى يعطونها للابن حتى الميراث وحرمة النسب — فأراد الله

بحو ذلك بالإسلام حتى لا يعرف إلا النسب الصريح ومن ثم قال في أول السورة
 « وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ
 وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ » وبهذا حرم على
 المسلمين أن ينسبوا الدعي إلى من تبناه ، وأن يكون للمتبنّى إلا حق المولى والأخ في
 الدين وحظر عليهم أن يقطعوا له من حقوق الابن لا قليلا ولا كثيرا .

وما رسخ في النفوس بحكم العادة لا يمكن التخلص منه إلا بإرادة قوية تسخر
 بسلاطنتها ، ولا تجعل لها حكما في الأعمال إذا كانت المصلحة في خلاف ذلك ، ومن
 ثم ألهم الله رسوله أن يلغى هذا الحكم بالعمل كما ألغى بالقول في أحد عتقائه ، ومن
 ثم أرغم بنت عمته لتتزوج بزيد وهو متبناه ليكون هذا الزواج مقدمة لتشريع
 إلهي جديد .

ذاك أنه بعد أن تزوجها زيد شمخت بأنفها عليه وجعلت تفخر عليه بنسبها ،
 فاشتكى منها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المرة بعد المرة وهو عليه السلام يغلبه
 الحياء حينئذ في تنفيذ حكم الله ويقول لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله ، إلى أن
 غلب حكم الله وسمح لزيد بطلاقها ، ثم تزوجها بعد ذلك ليزق حجاب تلك العادة
 كما قال : « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا
 مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا » ثم أكد هذا بقوله : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ
 مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » .

الإيضاح

(وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من
 أمرهم) أى ليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله قضاء أن يتخيروا من أمرهم
 غير الذى قضى فيهم ويتخالفوا أمر الله ورسوله وقضاهما وبعضيهما .

والخلاصة — لا ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة أن يختارا أمرا قضى الرسول بغيره .
ثم أكد ما سلف بقوله :

(ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا) أى ومن يعص الله ورسوله
فيا أمرا ونهيا فقد جار عن قصد السبيل وسلك غير طريق الهدى والرشاد ، وقد
علمت فيما سلف سبب نزول هذه الآية .

ونحو الآية قوله : « فَلْيَعْذِرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ
أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

ثم ذكر الله نبيه بما وقع منه ليزيده تثبيتا على الحق وليدفع عنه ماحاك في صدور
ضعاف العقول ومرضى القلوب فقال :

(وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله)
أى واذكر أيها الرسول حين قولك لمولائك الذى أنعم الله عليه فوقه للإسلام وأنعمت
عليه بحسن تربيته وعتقه وتقريبه منك : أمسك عليك زوجك زينب واتق الله
في أمرها ولا تطلقها ضاررا وتعللا بتكبرها وشموخا بأنفها ، فإن الطلاق يشينها ،
وربما لا يجد بعدها خيرا منها .

وفي التعبير بأنعمت عليه إيماء إلى وجه العتب بذكر الحال التى تنافى ما صدر
منه عليه السلام من إظهار خلاف ما فى نفسه ، إذ هذا إنما يكون حين الاستحياء
والاحتشام ، وكلاهما مما لا ينبغي أن يكون مع زيد مولاه .

(وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) أى وأنت تعلم أن الطلاق لا بد منه بما ألهمك
الله أن تمثل أمره بنفسك لتكون أسوة لمن معك ولمن يأتى بعدك ، وإنما غلبك
فى ذلك الحياء وخشية أن يقولوا تزوج محمد مطلقة متبناه ، فأنت تخفى فى نفسك
ما الله مبديه من الحكم الذى ألهمك .

(وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) أى وتخاف من اعتراض الناس والله

الذي أمرك بهذا كله أحق وحده بأن تخشاه ، فكان عليك أن تمضي في الأمر قُدماً
تجسّيلاً لتنفيذ كلمته وتقرير شرعه .

ثم زاد الأمر بيانا بقوله :

(فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج
أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) أى فلما قضى زيد منها حاجته وملأها ثم طلقها
جعلناها زوجاً لك لترتفع الوحشة من نفوس المؤمنين ولا يجدوا في أنفسهم حرجاً من
أن يتزوجوا نساء كنّ من قبل أزواجاً لأدعيائهم .

(وكان أمر الله مفعولاً) أى وكان ما قضى الله من قضاء كائننا للاحالة ؛ أى إن
قضاء الله في زينب أن يتزوجها رسول الله كأن ماض لا بد منه .

روى البخارى والترمذى « أن زينب رضى الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي
صلى الله عليه وسلم تقول زوجكن أهلوكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات »
وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال : « كانت تقول للنبي صلى الله عليه وسلم إني لأدرك
عليك بثلاث ما من نساءك امرأة تُدركُ بهن : إن جدى وجدك واحد ، وإني
أنكحك الله إياى من السماء ، وإن السفير لجبريل عليه السلام » .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) أى ليس على النبي حرج فيما
أحل الله له من نكاح امرأة من تبناه بعد فراقه إياها .

ثم بين أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بدعا في الرسل فيما أباح له من
الزوجات والسرارى فقال :

(سنة الله في الذين خلوا من قبل) أى إن الله سن بك أيها الرسول سنة
أسلافك من الأنبياء الذين مضوا من قبل فيما أباح لهم من الزوجات والسرارى ،
فقد كان لسليمان وداود وغيرهما عدد كثير منهن .

وفي هذا رد على اليهود الذين عابوه صلى الله عليه وسلم (وحاشاه) بكثرة الأزواج

(وكان أمر الله قدرا مقدورا) أى وكان أمر الله الذى يقدره كائننا لا محالة .
وواقعا لا محيد عنه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .
ثم وصف الذين خلوا بصفات السكامل والتقوى وإخلاص العبادة له وتبليغ
رسالته فقال :

(الذين يبالغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله) أى هؤلاء
الذين جعل محمد متبعاً سنتهم وسالكا سبيلهم هم الذين يبالغون رسالات ربهم إلى
من أرسلوا إليهم ويخافون الله فى تركهم تبليغ ذلك ولا يخافون سواه .
والخلاصة — كن من أولئك الرسل الكرام ولا تخش أحدا غير ربك فإنه
يحميك ممن يريدك بسوء أو يمسك بأذى .

(وكفى بالله حسيبا) أى وكفى الله ناصرا ومعينا وحافظا لأعمال عباده ومحاسبا
لهم عليها .

ولما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب قالوا تزوج حليمة ابنة فأنزل الله :
(ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) أى
ما كان لك أن تخشى أحدا من الناس بزواج امرأة متبناك لا ابنك ، فإنك لست
أباً لأحد من الناس ، ولكنك رسول الله فى تبليغ رسالته إلى الخلق ، فأنت أب
لكل فرد فى الأمة فيما يرجع إلى التوقير والتعظيم ووجوب الشفقة عليهم كما هو دأب
كل رسول مع أمته .

وخلاصة ذلك — ليس محمد أب لأحد منكم أبوة شرعية يترتب عليها حرمة
المصاهرة ونحوها ، ولكنه أب المؤمنين جميعا فيما يجب عليهم من توقيره وإجلاله
وتعظيمه ؛ كما أن عليه أن يشفق عليهم ويحرص على ما فيه خيرهم وفائدتهم فى المعاش
والمعاد وما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

أولاد النبي صلى الله عليه وسلم

ولد للنبي صلى الله عليه وسلم من خديجة ثلاثة ذكور: القاسم والطيب والظاهر ، وماتوا صغارا لم يبلغ أحد منهم الحلم ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية ومات رضيعا ، وولد له من خديجة أربع بنات : زينب ورُقِيَّة وأم كلثوم وفاطمة ، وقد مات الثلاث الأول في حياته صلى الله عليه وسلم ، وماتت فاطمة بعد أن قبض صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى بستة شهور .

(وكان الله بكل شيء عليما) فيعلم من هو الأجدر بالبداء به من الأنبياء ، ومن هو الأحق بأن يكون خاتمهم ، ويعلم المصالح في ذلك .
ونحو الآية قوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّاتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي صلى الله عليه وسلم مع ربه من تقواه وإخلاصه له في السر والعلن ، وما ينبغي أن يكون عليه مع أهله وأقاربه من راحتهم وإيثارهم على نفسه فيما يطلبون كما يوعى إلى ذلك قوله : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ) الخ ، أرشد عباده إلى تعظيمه تعالى وإجلاله بذكره والتسبيح له بكرة وأصيلًا ، فهو الذى يرجمهم وملائكته يستغفرون لهم كي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وكان بعباده المؤمنين رحيمًا .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) أى أيها الذين صدقوا الله ورسوله اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ذكرا كثيرا فى جميع أحوالكم جهد الطاقة لأنه المنعم عليكم بأنواع النعم وصنوف المنن .

(وسبحوه بكرة وأصيلا) أى وتزهروه عما لا يليق به طرفى النهار ، لأن وقت البكرة وقت القيام من النوم وهو يعدّ كأنه حياة جديدة بعد موت ، ووقت الأصيل وقت الانتهاء من العمل اليومي ، فيكون الذكر شكرا له على توفيقه لأداء أعمال الدنيا والقيام بالسعى على الأرزاق الدنيوية فلم يبق إلا السعى إلى ما يقرب إلى الله بعمل الآخرة .

ثم ذكر السبب فى هذا الذكر والتسبيح فقال :

(هو الذى يصلى عليكم وملائكته) أى إن ربكم الذى تذكرونه الذكر الكثير وتسبحونه بكرة وأصيلا - هو الذى يرحمكم ويثني عليكم فى الملأ من عباده وتستغفر لكم ملائكته .

وفى هذا من التحريض على ذكره والتسبيح له ما لا يخفى .

(ليخرجكم من الظلمات إلى النور) أى إنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم - أخرجكم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ،

(وكان بالمؤمنين رحيما) فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم ، وبصّره الطريق الذى حاد عنه سواهم من الدعاة إلى الكفر ، وأما فى الآخرة فإنه آمنهم من الفرع الأكبر وأمر الملائكة أن يتلقوهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(تحييتهم يوم يلقونه سلام) أى تحييتهم الملائكة بذلك إذا دخلوا الجنة ؛ كما قال تعالى : «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ» .

(وأعدّ لهم أجرا كريما) أى وهيا لهم ثوابا حسنا فى الآخرة يأتهم بلا طلب بما يتمتعون به من لذات المآكل والمشرب والملابس والمساكن فى فسيح الجنات مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تَطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تأديبه لنبيه فى ابتداء السورة ، وذكر ما ينبغى أن يكون عليه مع أهله - ذكر ما ينبغى أن يكون عليه مع الخلق كافة .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) أى يأيها الرسول إنا بعثناك شاهدا على من بعثت إليهم تراقب أحوالهم ، وترى أعمالهم ، وتتحمل الشهادة بما صدر منهم من تصديق وتكذيب ، وسائر ما يفعلون من الهدى والضلال ، وتؤدى ذلك يوم القيامة ، وأرسلناك مبشرا لهم بالجنة إن صدقوك ، وعلموا بما جنتهم به من عند ربك ، ومنذرا لهم بالنار يدخلونها فيعذبون فيها إن هم كذبوك وخالفوا ما أمرتهم به ونهيتهم عنه .

(وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) أى وداعيا الخلق إلى الإقرار بوحدانيته تعالى ، وسائر ما يجب له من صفات الكمال ، وإلى عبادته ، ومراقبته فى السر والعلن -

وسراجاً منيراً يستضيء بك الضالون في ظلمات الجهل والغواية ، ويقتبس من نورك المهتدون ، فيسلكون منهاج الرشd والسعادة .

(وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً) أى وراقب أحوال أمتك ، وبشر المؤمنين بأن لهم فضلاً كبيراً على سائر الأمم ، فإنهم سيغيرون نظم المجتمع من ظلم وجور إلى عدل وصالح ، ويدخلون الأمم المتمثرة في أبواب الضلال في زمرة الأمم التي عليها صلاح البشر في مستأنف الزمان .

أخرج ابن جرير وعكرمة عن الحسن أنه قال : لما نزل قوله : « لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » قالوا : يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فانزل الله : « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً » .
ولما أمره الله بما يسرّ نهاه عما يضر ، فقال :

(ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً) أى ولا تطع قول كافر ولا منافق في أمر الدعوة ، وأن الجانب في التبليغ ، وارفق في الإنذار ، واصفح عن أذاهم ، واصبر على ما ينالك منهم ، وفوض أمورك إلى الله ، وثق به فإنه كافيك جميع من دونك ، حتى يأتيك أمره وقضاؤه ، وهو حسبك في جميع أمورك ، وكائنك وراعيك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)

شرح المفردات

النكاح هنا : العقد ، والمُس معروف ؛ والمراد به قربان المرأة ، ومن أدب القرآن الكريم التعبير عنه بالملامسة والمماساة ، والقربان والتفشي والإتيان ، والعدة : الشيء

المعدود ، وعدة المرأة : الأيام التي باقتضاؤها يحل بها الزوج ، فتعوهن : أى أعطوهن
المنفعة ، وهى قميص وخمار (مانع على به المرأة رأسها) وملحفة (ماتلتحف به من
قرنها إلى قدمها - ملاية) سرحوهن : أى أخرجوهن من منازلكن ، سراحا جميلا :
أى إخراجا مشتملا على لين الكلام خاليا من الأذى .

المعنى الجملى

أدب الله نبيه بمكارم الأخلاق بقوله : يأياها النبي اتق الله ، وثنى بتذكيره بحسن
معاملة أزواجه بقوله : يأياها النبي قل لأزواجك ، وثلت بذكر معاملته لأمنته بقوله :
يأياها النبي إنا أرسلناك شاهدا ، وكان كلما ذكر للنبي مكرمة ، وعلمه أدبا ذكر للمؤمنين
ما يناسبه ، فأرشد المؤمنين فيما يتعلق بجانبه بقوله : يأياها الذين آمنوا اذكروا الله
ذكرا كثيرا ، وفيما يتعلق بما تحت أيديهم من الزوجات بقوله : يأياها الذين آمنوا
إذا تكلمتم المؤمنات ، وفيما يتعلق بمعاملتهم لنبيهم فقال : لا تدخلوا بيوت النبي الخ ، وقال :
يأياها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .

الإيضاح

أى يأياها الذين آمنوا إذا عقدتم على المؤمنات وتزوجتموهن ثم طلقتموهن من
قبل المسيس ، فلا عدة لكم عليهن بأيام يترصن بها تستوفون عددها ، ولكن
اكنسوهن كسوة تليق بجاهن إذا خرجن وانتقلن من بيت إلى آخر ، ويختلف ذلك
باختلاف البيضة والبلد الذى تعيش فيه المرأة ، وأخرجوهن إخراجا جميلا ، فهيشواهن
من المركب والزاد وجميل المعاملة مانعاً به أعينهن ويسر به أهلوهن ؛ ليكون فى ذلك
بعض السلوة مما لحقها من أذى بقطع المشرة التى كانت تنتظر دوامها ، وبخروج من
بيت كانت ترجو أن يكون هو المقام إلى أن تلاقى ربها ، أو يموت بعلمها .

روى البخارى عن سهل بن سعد وأبى أسيد رضى الله عنهما قالا : « إن رسول
الله صلى الله عليه وسلم تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه صلى الله عليه

وسلم بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين (ضرب من الثياب مشهور فى ذلك الحين) .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ
وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ
وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً
إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ إِكْثِلَا يَكُونُ عَلَيْكَ حَرْجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠)

شرح المفردات

الأجور هنا : المهور ، وما مَلَكَتْ يَمِينُكَ : أى ما أخذته من المغنم ، خالصة لك : أى هى خاصة بك ، حرج : أى ضيق ومشقة .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ) أى يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ الْأَزْوَاجَ اللَّاتِي أُعْطِيَتْهُنَّ مَهْرَهُنَّ ، وقد كان مهره عليه السلام لنسائه اثنتى عشرة أوقية ونصف أى خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى رحمه الله أربعمائة دينار .

(وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ) أى وَأَحْلَلْنَا لَكَ الْإِمَاءَ اللَّوَاتِي سَبَيْتَهُنَّ فَلَكْتَهُنَّ بِالسَّبَاءِ ، وصرن لك من الفىء بفتح الله عليك ، وقد ملك صفية بنت حى ابن أخطب فى سبى خيبر ، ثم أعتقها ، وجعل صداقها عتقها ، وجُوزِية بنت الحرث

من بنى المصطلق أعتقها ، ثم تزوجها ، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية أم إبراهيم ، وكاتبنا من السراى .

(وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك) أى وأحللنا لك بنات عمك وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك المهاجرات معك دون من لم يهاجرن .

روى السدى عن أبى صالح عن أم هانىء قالت : « خطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعتذرت إليه ، فمذرني ؛ ثم أنزل الله تعالى : (إنا أحللنا لك أزواجك - إلى قوله - اللاتى هاجرن معك) قالت : فلم أكن أحل له ، ولم أكن ممن هاجر معه ، كذت من الطلقاء » .

(وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) أى وأحللنا لك التمتع بالمرأة المؤمنة التى تهب نفسها لك بلا مهر إن أردت ذلك .

وهذه الإباحة خاصة لك من دون المؤمنين ، فلو وهبت امرأة نفسها لرجل وجب عليه لها مهر مثلها ، كما حكم بذلك رسول الله فى برؤع بنت واشق لما فوضت نفسها ومات عنها زوجها فحكم لها بصداق مثلها .

والموت والدخول سواء فى تقرير مهر المثل ، وثبوت مهر المثل فى المفوضة لغير النبي صلى الله عليه وسلم ، فأما هو فلا يجب عليه للمفوضة شئ لو دخل بها ، لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولئ ولا شهود ، كما فى قصة زينب بنت جحش رضى الله عنها .

(قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم) أى قد علم الله ما ينبغى فرضه على المؤمنين فى أزواجهم من شروط العقد ، وأنه لا تحل لهم امرأة بلفظ الهبة ، وبدون شهود ، وفى الإماء بشراء أو غيره أن تكون ممن تحل للمالكها كالكتابية بخلاف الوثنية والجوسية - وهذه الجملة معترضة بين ماسلف وما سيأتى :

ثم ذكر العلة في اختصاصه عليه الصلاة والسلام بما تقدم من الأحكام بقوله :
 (لكيلا يكون عليك حرج) أى أحطنا لك ذلك حتى لا يكون حرج وضيق
 في نكاح من نكحت من الأصناف السالفة .
 (وكان الله غفورا رحيما) أى وكان ربك غفورا لك ، ولأهل الإيمان بك ،
 رحيما بك وبهم أن يعاقبهم على سالف ذنب صدر منهم بعد توبتهم .

تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ
 عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ آيَاتِهِمْ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنِ
 بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)

شرح المفردات

ترجى : أى تؤخر من الإرجاء وهو التأخير ، وقرئ ترجى ، وتؤوى : أى تضم
 وتضاجع ، ابتغيت : أى طلبت ، عزلت : أى تجنبت ، أدنى : أى أقرب ، تقرئ :
 أى تسرئ .

الإيضاح

(ترجى من تشاء منهم وتؤوى إليك من تشاء) أى تؤخر مضاجعة من تشاء
 من نسائك ، وتضاجع من تشاء ، ولا يجب عليك قسم بينهم ، بل الأمر في ذلك
 إليك ، على أنه كان يقسم بينهم .

(ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) أى ومن دعوت إلى فراشك ،
 وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالطلاق ، فلا ضيق عليك في ذلك .
 والخلاصة : إنه لاضير عليه إذا أراد إرجاع من طلقها من قبل .

روى ابن جرير عن أبي رزّين قال : « لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقهن ، فقلن : يا رسول الله اجعل لنا من مالك ، ومن نفسك ما شئت ، ودعنا كما نحن ؛ فنزلت هذه الآية ، فأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهن ، وآوى إليه بعضهن وكان ممن آوى إليه عائشة وحفصة وزينب وأم سلمة ، وكان يقسم بينهن سواء ، وأرجأ منهن خمساً : أم حبيبة وميمونة ، وسودة وصفيّة وجويرية ، فكان لا يقسم بينهن ما شاء » .

ثم بين السبب في الإيواء والإرجاء ، وأنه كان ذلك في مصلحتهن ، فقال : (ذلك أدنى أن تقرّ أعينهن ولا يحزنن ويرضين بما آتيتهن كلهن) أى إنهن إذا علمن أن الله قد وضع عندك الحرج في القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك فى أى ذلك فعلت ، وأنت مع هذا تقسم لمن اختياراً منك لا وجوباً عليك - فرحن بذلك ، واستبشرن به ، واعترفن بمنتك عليهن فى قسمك لمن ، وتسويتك بينهن ، وإنصافك لمن ، وعدلك بينهن .

(والله يعلم ما فى قلوبكم) من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه ، ومن الرضا بما دبر الله فى حقهن من تفويض الأمر إليه صلى الله عليه وسلم .
روى أحمد عن عبد الله بن يزيد عن عائشة قالت : « كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تمنى فيما تملك ولا أملك »
يعنى القلب ، وزيادة الحب لبعض دون بعض .

وفى هذا حث على تحسين ما فى القلوب ، ووعيد لمن لم يرض منهن بما دبر الله من ذلك ، وفوضه إلى مشيئته ، وبعث على تواطؤ قلوبهن ، والتصافى بينهن ، والتوافق على رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(وكان الله عليماً حليماً) أى وكان الله عليماً بالسرائر ، حليماً فلا يعاجل أهل الذنوب بالمعقوبة ، ليتوب منهم من شاء له أن يتوب ، وينيب من ذنوبه من ينيب .

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه لم يوجب على نبيه القسَمَ لنسائه وأمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله — أردف ذلك بذكر ما جازاهم به من تعريم غيرهن عليه ومنعه من طلاقهن بقوله : (ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) .

الإيضاح

تتضمن الآية الكريمة حكيمين : ألا يتزوج عليه السلام غيرهن ، ولا أن يستبدل بهن غيرهن ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(١) (لا يحل لك النساء من بعد) أى لا يحل لك النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتي فى عصمتك اليوم كفاء اختيارهن الله ورسوله وحسن صنيعهن فى ذلك .
« أخرج أبو داود فى ناسخه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أنس قال :
« لما خيرهن فاخترن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم قصره سبحانه عليهن » .
وروى عن ابن عباس أنه قال فى الآية : (حبسه الله تعالى عليهن كما حبسهن عليه) .

(٢) (ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك)
أى ولا يحل لك أن تستبدل بهن أزواجا غيرهن بأن تطلق واحدة منهن وتتكح
بدلها أخرى مهما كانت بارعة فى الحسب والجمال إلا ما ملكت يمينك منهن ، وقد
ملك بعدهن مارية القبطية أهداها له المقوقس فتنسأها وأولدها إبراهيم ومات رضيعا .
وفى الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد زواجها ، وقد روى أبو داود أن
النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى
ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل » وعن المغيرة بن شعبه قال : « خطبت امرأة فقال لى النبي

صلى الله عليه وسلم : هل نظرت إليها ؟ قلت لا . قال : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما .

(وكان الله على كل شيء رقيباً) أى وكان الله حافظاً ومطلماً على كل شيء ، عليماً بالسر والنجوى ، فاحذروا تجاوز حدوده وتخطى حلاله إلى حرامه .

آية الحجاب وما فيها من أحكام وآداب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ لَهُ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكَكُمْ أَطْهَرُ لِقَائِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ، إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) .

شرح المفردات

إنه : أى نضجه : يقال أى الطعامُ يأتى أنى ؛ أى أدرك وفرغ ، وفيه لغات : إلى بكسر الهمزة وأنى بفتحها مقصوراً وممدوداً قال الخطيب :

وأخرتِ النساء إلى سهيل أو الشعرى فطال بى الأناء

فانتشروا : أى فنفركوا ولا تلبثوا ، مستأنسين لحديث : أى مستمعين له ، متاعاً :

أى شيئاً تتمتعون به من ماعون وغيره ، أظهر لقلوبكم : أى أكثر تطهراً من الخواطر الشيطانية التى تخطر للرجال فى أمر النساء وللنساء فى شأن الرجال .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال النبى صلى الله عليه وسلم مع أمته بقوله : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » أردف ذلك ببيان حال المؤمنين مع النبى صلى الله عليه وسلم ؛ إرشاداً لما يجب عليهم نحوه من الاحترام والتعظيم فى خلوته وفى الملا ، فأبان أنه يجب عدم إزعاجه إذا كان فى الخلوة بقوله : « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ » إلخ . وأنه يجب إجلاله إذا كان فى الملا بقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

روى أن هذه الآية نزلت يوم تزوج النبى صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش ؛ فقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم وابن جرير وابن مردويه والبيهقى عن أنس قال : « لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جالسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبى صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فالتقى الحجاب بينى وبينه فأنزل الله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) الآية .

الإيضاح

أدب الله عباده بأداب ينبغي أن يتخلقوا بها لما فيها من الحكم الاجتماعية والمزايا العمرانية فقال :

(١) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ

تأخرين إناه) أى أيها الذين آمنوا بالله ورسوله: لا تدخلوا بيوت نبي الله إلا أن تدعوا إلى طعام تطعمونه غير منتظرين إدراكه ونضجه .

وخلاصة ذلك — إنكم إذا دعيتم إلى وليمة في بيت النبي صلى الله عليه وسلم فلا تدخلوا البيت إلا إذا علمتم أن الطعام قد تم نضجه وانتهى إعداده ، إذ قبل ذلك يكون أهل البيت في شغل عنكم ، وقد يلبس ثياب البذلة والعمل فلا يحسن أن تروهون وهنّ على هذه الحال ، إلى أنه ربما بدا من إحداهن ما لا يحل النظر إليه .

(٢) (ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث) أى ولكن إذا دعاكم الرسول صلى الله عليه وسلم فادخلوا البيت الذى أذن لكم بدخوله ، فإذا أكلتم الطعام الذى دعيتم إلى أكله فتفرقوا واخرجوا من منزله ولا تمكثوا في البيت لتتبادلوا ألوان الحديث وفنونه المختلفة .

أخرج عبد بن حميد عن الربيع عن أنس قال : كانوا يتعجبون فيدخلون بيت النبي صلى الله عليه وسلم فيجلسون فيتحدثون ليدرك الطعام فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا) الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سليمان بن أرقم قال : نزلت هذه في الثقلاء ومن ثم قيل هي آية الثقلاء .

ثم علل ذلك بقوله :

(إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق) أى إن ذلك اللبث والاستئناس والدخول على هذا الوجه كان يؤذى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان يمنعه من قضاء بعض حاجه ، إلى ما فيه من تضيق المنزل على أهله ، لكنه كان يستحي من إخراجكم ومنعكم مما يؤذيه ، والله لم يترك الحق وأمركم بالخروج . وفى هذا إيحاء إلى أن اللبث يحرم على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم إذا كان في ذلك أذى لرب البيت ، ولو كان البيت غير بيت النبي صلى الله عليه وسلم فالتبجيل مذموم في كل مكان ، محقر لدى كل إنسان .

وعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما «حسبك في الثقل أن الله عز وجل لم يحتملهم»

وعلى الجملة فللدعوة إلى المآذب نظم وآداب خاصة أفردت بالتأليف ولا سيما في العصر الحديث .

وجعلوا التحلل منها وترك اتباعها مما لا تسامح فيه .

(٣) (وإذا سألتهم متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) أى وإذا سألتهم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين اللواتي لسن لكم بأزواج ، شيئا تتمتعون به من ماعون وغيره فاطلبوا منهم ذلك من وراء ستر بينكم وبينهن .

أخرج البخارى وابن جرير وابن مردويه عن أنس رضى الله عنه قال : قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب فى صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة ، وهى مما وافق تنزيلها قول عمر كما فى الصحيحين عنه قال : وافقت ربه عز وجل فى ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله : « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وقلت : يا رسول الله إن نساء كيدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتن فأنزل الله آية الحجاب ، وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لما تمألن عليه فى الغيرة « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَبَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ » فبزلت كذلك .

ثم بين سبب ما تقدم بقوله :

(ذلکم أظہر لقلوبکم وقلوبہن) أى ذلك الدخول بالإذن وعدم الاستئناس للأحاديث أظهر لقلوبكم وقلوبهن من وساوس الشيطان والريب ، لأن العين رسول القلب ، فإذا لم تر العين لم يشته القلب ، فالقلب عند عدم الرؤية أظہر وعدم الفتنة

حينئذ أظهر، وجاء في الأثر « النظر سهم مسموم من سهام إبليس » وقال الشاعر :

والمرء ما دام ذاعين يقلبها في أعين العين موقوف على الخطر

يسر مُقلته ما ساء مُهَجته لا مرجبا بانتفاع جاء بالضرر

ولما ذكر ما ينبغي من الآداب حين دخول بيت الرسول أ كده بما يحملهم

على ملاطفته وحسن معاملته بقوله :

(وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) أى وما كان ينبغي لكم أن تفعلوا

في حياته صلى الله عليه وسلم فعلا يتأذى به ويكرهه كاللبث والاستئناس بالحديث

الذى كنتم تفعلونه ، فإن الرسول يسعى لخيركم ومنفعتكم في دنياكم وآخرتكم ، فعلمنا

أن تقابله بالحسنى كفاء جليل أعماله .

ولما كان صلى الله عليه وسلم قد قصر عليهم قصرهن الله عليه بقوله .

(ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) أى ولا تنكحوا أزواجه أبدا من بعد

مفارقتهن بموت أو طلاق ، زيادة في شرفه ، وإظهارا لعظمته وجلاله ، ولأنهن

أهبات المؤمنين ، والمرء لا يتزوج أمه .

ثم بين السبب فيما تقدم بقوله :

(إن ذلكم كان عند الله عظيما) أى إن ذلك الإيذاء وزواج نسائه من بعده

أمر عظيم وخطب جليل لا يقدر قدره غير الله تعالى .

ولا يخفى ما في هذا من شديد الوعيد وعظيم التهديد على هذا العمل — إلى

ما فيه من تعظيم شأن الرسول وإيجاب حرمة حيا وميتا .

ثم بالغ في الوعيد وزاد في التهديد بقوله :

(إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما) أى إن ما تكتمه

ضمائركم وتنطوى عليه سرائركم فالله يعلمه إذ لا تخفى عليه خافية « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ

وَمَا تَخْفَى الصُّدُورُ » ثم يحازيكم بما صدر منكم من المعاصي البادية والخافية ، والكلام

وإن كان عاما بظاهره فالمتصود ما يتعلق بزواجه عليه السلام .

وسبب نزول الآية أنه لما نزلت آية الحجاب قال رجل : أُنْهَى أَنْ نَكْلَمَ بَنَاتِ
أَعْمَامِنَا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ؟ لئن مات محمد لنتزوجن نساءه .

وأخرج جوير عن ابن عباس « أن رجلا أتى بعض أزواج النبي فكلما وهو
ابن عمها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لَا تَقُومَنَّ هَذَا الْمَقَامَ بَعْدَ يَوْمِكَ هَذَا ،
فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهَا ابْنَةُ عَمِي ، وَاللَّهِ مَا قُلْتُ مُتَكْرَماً وَلَا قَالَتْ لِي ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ : إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرُ
مَنِي ، فَضَى ثُمَّ قَالَ مَا يَمْنَعُنِي مِنْ كَلَامِ ابْنَةِ عَمِي ؟ لِأَتَزَوَّجَهَا مِنْ بَعْدِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ
الْآيَةَ ، فَأَعْتَقَ الرَّجُلَ رَقَبَةً ، وَحَمَلَ عَلَى عَشْرَةِ أْبْعَرَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَحَجَّ مَاشِياً لِأَجْلِ
كَلِمَتِهِ . » وَرَوَى أَنَّ بَعْضَ الْمُنَافِقِينَ قَالَ حِينَ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
مَ سَلَمَةَ بَعْدَ أَبِي سَلَمَةَ وَحَفْصَةَ بَعْدَ خَنْبَسِ بْنِ حِذَافَةَ : مَا بَالُ مُحَمَّدٍ يَتَزَوَّجُ نِسَاءَنَا ؟
وَاللَّهِ لَوْ قَدْ مَاتَ لِأَجْلِ السَّهَامِ عَلَى نِسَائِهِ فَتَزَلَّتْ .

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ
وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن نساء النبي لا يكلمن إلا من وراء حجاب — أردف ذلك
بإستثناء بعض الأقارب ونساء المؤمنين والأرقاء ، لما فى الاحتجاب عن هؤلاء من
عظيم المشقة ، للحاجة إلى الاختلاط بهؤلاء كثيرا .

رؤى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : أَوْنَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ
نَكْلَمُهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ؟ فتزلت .

الإيضاح

لأنهم على أزواج النبی صلى الله عليه وسلم في ترك الحجاب حين دخول آبائهم ، سواء أكان الأب أباً من النسب أم من الرضاع أو أبناً من نسباً أو رضاعاً ، أو إخوانهم أو بنى إخوانهم أو أبناء إخوانهم أو أبناء أخواتهم ، أو النساء المسلمات القرى منهن والبعدى ، أو ما ملكت أيمانهم من العبيد لما في الاحتجاب عنهن من المشقة ، لأنهم يقومون بالخدمة عليهن .

واخشين الله في السر والعلن فإنه شهيد على كل شيء لا تخفى عليه خافية ، وهو يجازى على العمل خيراً أو شراً .
والخلاصة — إن الله شاهد عليكم عند اختلاء بعضهم ببعض ، خلوتكم مثل ملتكم فاتقوه فيما تأتون وما تذررون .

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر وجوب احترام النبي حال خلوته بقوله : « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ » أردف ذلك بوجوب احترامه في الملا الأعلى بقوله : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ » وفي الملا الأدنى بقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

الإيضاح

(إن الله وملائكته يصلون على النبي) الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ؛ فالمعنى كما قال ابن عباس : إن الله يرحم النبي والملائكة يدعون له ويطلبون له الغفرة .

وقد أخبر الله سبحانه عباده بمنزلة عبده ونبيه في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه لدى ملائكته المقربين ، وأن ملائكته تصلي عليه طالبين له مغفرة من الله .
وقد أمرنا بأن نصلي عليه بقوله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) أى يا أيها الذين آمنوا ادعوا له بالرحمة وأظهروا شرفه بكل ما تصل إليه قدرتكم من حسن متابعتة والالتقياد لأمره في كل ما يأمر به ، والصلاة والسلام عليه بالسنتكم .

روى البخارى بسنده عن كعب بن عجرة قال : « قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفنا ، فكيف الصلاة ؟ قال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .

روى عبدالله بن أبي طلحة عن أبيه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى تُرى في وجهه ، فقلنا إنا لنرى البشرى في وجهك ، فقال : جاءني جبريل فقال : يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول أما يرضيك أن لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرا » .

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه باحترام نبيه في بيته وفي الملأ — نهى عن إيذاء الله بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره ، وإيذاء رسوله بالصاق عيب أو نقص به .

الإيضاح

(إن الذين يؤذون الله) فيرتكبون ما حرمه من الكفر وسائر أنواع المعاصي، ومنهم اليهود الذين قالوا «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» والنصارى الذين قالوا «الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ» والمشركون الذين قالوا: الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

(ورسوله) كالذين قالوا هو شاعر كاهن مجنون إلى نحو ذلك من مقالاتهم، فمن آذاه فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله.

(لعنهم الله في الدنيا والآخرة) أى طردهم من رحمته وأبعدهم من فضله في الدنيا، فجعلهم يتبادون في غيهم، ويدسّون أنفسهم ويستمرّثون سبل الغواية والضلالة التي تدرهم في النار وبئس القرار، وفي الآخرة حيث يصلون نارا تشوى الوجوه.

(وأعد لهم عذاباً مهيناً) أى وهياً لهم عذاباً يؤلمهم ويجعلهم في مقام الزرية والاحتقار، والخزى والهوان.

ولما كان من أعظم أذى رسوله أذى من تابعه، بين ذلك بقوله:

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا
بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا.

شرح المفردات

بغير ما اكتسبوا: أى بغير جناية يستحقون بها الأذى، والبهتان: الكذب الذى يهت بهت الشخص لفظاعته، وإثماً مبيناً: أى ذنباً واضحاً بيناً.

الإيضاح

أى إن الذين ينسبون إلى المؤمنين والمؤمنات ما لم يعملوه وماهم منه براء، اجترحوا كذباً فظيعاً، وأنوا أمراً إذاً، وذنباً ظاهراً ليس له ما يسوغه أو يقوم مقام العذر له.

روى الضحاك عن ابن عباس قال : أنزلت في عبد الله بن أبي وناس معه قذفوا عائشة رضى الله عنها ؛ فخطب النبي صلى الله عليه وسلم وقال : «من يعذرني من رجل يؤذيني ويجمع في بيته من يؤذيني؟» .

وروى أبو هريرة «أنه قيل يا رسول الله ما الغيبة؟ قال ذكرك أخاك بما يكره ، قيل أرايت إن كان في أخي ما أقول؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » .

وروى عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : «أى الربا أربى عند الله؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال أربى الربا عند الله استحلل عرض امرئ مسلم ، ثم قرأ (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) » .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يُّعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٩) لَيْسَ لَهُ يَنْتَهِي الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتْلًا شَدِيدًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢)

شرح المفردات

الجلابيب : واحدها جلباب وهى الملاءة التى تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخطار ، يدنين : أى يرخين ويسدلن ؛ يقال للمرأة إذا زل الثوب عن وجهها أدنى ثوبك على وجهك ، أدنى : أى أقرب ، أن يعرفن : أى يميزن عن الإساءة ، مرض : أى ضعف

إيمان بآياتها كهم حرمات الدين ، والمرجعون : هم اليهود الذين كانوا يلقون أخبار السوء وينشرونها عن سرايا المسلمين وجندهم ، وهو من الإرجاف وهو الزلزلة ؛ وصفت بها الأخبار الكاذبة لكونها مزلة غير ثابتة ، لتغريتك بهم : أى لتسلطتك عليهم ولتحرشتك بهم ، ملعونين : أى مبعدين من رحمة الله ، ثقفوا : أى وجدوا ، خلوا : أى مضوا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من يؤذى مؤمنا فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً ، زجراً لهم عن الإيذاء — أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع إيذاءهم فى الجملة من التستر والتميز بالزى واللباس حتى يتبعدوا عن الأذى بقدر المستطاع . روى أنه لما كانت الحرائر والإماء فى المدينة يخرجن ليلاً لقضاء الحاجة فى الغيطان وبين النخيل بلا فارق بين الحرائر والإماء ، وكان فى المدينة فساق يتعرضون للإماء وربما تعرضوا للحرائر ، فإذا كُلموا فى ذلك قالوا حسبناهن إماء — أمر الحرائر أن يخالفن الإماء فى الزى والتستر ليتمايزن ويُهين فلا يطعم فيهن طامع .

الإيضاح

(يأيهما النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) طلب الله من نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر النساء المؤمنات المسلمات وبخاصة أزواجه وبناته بأن يسدن عليهن الجلابيب إذا خرجن من بيوتهن ليتمايزن عن الإماء . روى على بن طلحة عن ابن عباس قال : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدن عينا واحدة .

وعن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية (يدنين عليهن من جلابيبهن) خرج نساء الأنصار كأن رؤوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسها .

وإجمال ذلك — إن على المسلمة إذا خرجت من بيتها حاجة أن تسدل عليها ملابسها بحيث تغطي الجسم والرأس ولا تبدى شيئا من مواضع الفتنة كالرأس والصدر والذراعين ونحوها .
ثم علل ذلك بقوله :

(ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) أى ذلك التستر أقرب لمعرفةهن بالعفة فلا يُتعرَّض لهن ولا يُلْقَيْن مكرها من أهل الريبة احتراماً لهن منهم ، فإن المتبرجة مطموع فيها منظور إليها نظرة سخرية واستهزاء كما هو مشاهد في كل عصر ومصر ، ولا سيما في هذا العصر الذى انتشرت فيه الخلاعة وكثر الفسق والفجور .

(وكان الله غفورا رحيما) أى وربك غفار لما عسى أن يكون قد صدر من الإخلال بالستر ، كثير الرحمة لمن امثل أمره معهن ، فيثيبه عظيم الثواب ويجزيه الجزاء الأوفى .

ولما كان الأذى إنما يحصل من أهل النفاق ومن على شاكلتهم حذرهم بقوله :
(لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لتغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا) أى لئن لم يكف أهل النفاق الذين يستسرون الكفر ويظهرون الإيمان ، وأهل الزيب الذين غلبتهم شهواتهم وركنوا إلى الخلاعة والفجور ، وأهل الإرجاف في المدينة الذين ينشرون الأخبار الملتفة الكاذبة التى فيها إظهار عورات المؤمنين وإبراز ما استكن من خفاياهم كضعف جنودهم وقلة سلاحهم وكراهم ونحو ذلك مما فى إظهاره مصلحة للعدو وخضد لشوكة المسلمين — لمسلطتك عليهم وندعوتك إلى قتالهم وإجلأهم عن البلاد ، فلا يسكنون معك فيها إلا قليلا وتحلو المدينة منهم بالموت أو الإخراج .

والخلاصة — إن الله سبحانه قد تعدد أصنافا ثلاثة من الناس بالقتال والقتل أو النقي من البلاد وهم :

(١) المنافقون الذين يؤذون الله سرًا .

(٢) من في قلوبهم مرض فيؤذون المؤمنين باتباع نسايتهم .

(٣) المرجفون الذين يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم بنحو قولهم : غلب محمد ، وسيخرج محمد من المدينة ، وسيؤخذ أسيرا إلى نحو ذلك مما يراد به إظهار ضعف المؤمنين وسخط الناس منهم .

ثم بين مال أمرهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة فقال :

(ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) أى فى ذلك الوقت القليل الذى يحاورونك فيه يكونون مطرودين من باب الله وبابك ، وإذا خرجوا لا ينفكون عن المذلة ولا يجدون ملجأ ، بل أينما يكونوا يطلبوا ويؤخذوا ويقتلوا تقتيلا .

ثم بين أن هذا الحكم عليهم وعلى أمثالهم بنحو هذا هو شرعة الله على أشباههم من قبل ، فهو ليس بيدع فيهم كما قال :

(سنة الله فى الذين خلوا من قبل وإن تجد لسنة الله تبديلا) أى إن سنته تعالى فى المنافقين فى كل زمان إذا استمروا فى كفرهم وعنادهم ولم يرجعوا عما هم فيه أن يسلط عليهم أهل الإيمان فيذلومهم ويقهروهم ، وهذه السنة لا تغير ولا تبدل ، لا بتناها على الحكمة والمصلحة ، ولا يقدر غيره على تغييرها .

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْغَنَمُ لَعْنَا كَبِيرًا (٦٨)

شرح المفردات

الساعة : يوم القيامة ، وما يدريك : أى وأى شيء يعلمك وقت قيامها ، سعيها : أى نارا مستعرة متقدة ، سادتنا : أى ملوكنا ، وكبراءنا : أى علماءنا ، ضعفين من العذاب : أى مثلى عذابنا ؛ لأنهم ضلوا وأضلوا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال هذه الفئات الثلاث في الدنيا وأنهم يلعنون ويهانون ويقتلون ، عطف على ذلك ذكر حالهم في الآخرة فذكرهم بيوم القيامة وبين ما يكون لهم في هذا اليوم .

الإيضاح

(يسألك الناس عن الساعة) أى يكثر الناس هذا السؤال ، متى تقوم الساعة ؟ فالمشركون يسألون عن ذلك استعجالا لها على طريق التهمك والاستهزاء ؛ والمنافقون يسألون سؤال المتعنت العالم بما يجب به الرسول ؛ واليهود يسألون سؤال امتحان واختبار ، ليعلموا أيجيب بمثل ما في التوراة من رد أمرها إلى الله أم يجيب بشيء آخر ؟ فلقنه الله الجواب عن هذا بجمل رد ذلك إليه تعالى فقال :

(قل إنما علمها عند الله) الذى أحاط علمه بكل شيء ، ولم يطلع عليها ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا .

ثم أكد نفى علمها من أحد غيره بقوله :

(وما يدريك) أى وأى شيء يعلمك وقت قيامها ؟ أى لا يعلمك به أحد أبدا .

ثم أخبر عن قرب وقوعها بقوله :

(لعل الساعة تكون قريبا) أى لعلمها توجد وتحقق بعد وقت قريب .

ونحو الآية قوله : « أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » وقوله : « أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ » وقوله : « أَلَيْسَ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » .
وفي هذا تهديد للمستعجلين المستهزئين ، وتبكيك للمتعمنين والمتحججين .
ثم بين حال السائلين عنها المنكرين لها بقوله :

(إِنْ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) أى إن الله أبعد الكافرين به من كل خير ، وأقصاهم من كل رحمة ، وأعد لهم فى الآخرة نارا يتقدم وتسعر ليصليهموها ، ما كثرين فيها أبدا إلى غير نهاية .

ثم أياهم من وجود ما يدفع عنهم العذاب من الولي والنصير بقوله :
(لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) أى لا يجدون حينئذ من يستنقذهم من السعير وينجهم من عذاب الله بشفاعه أو نصرة كما هي الحال فى الدنيا لدى الظلمة ، إذ ربما وجد النصير والشفيع الذى يخلص فيها من الورطات ويدفع المصايب والنكبات .
(يَوْمَ تَقَلَّبَ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ) أى لا يجدون وليا ولا نصيرا حين تصرف وجوههم فيها من جهة إلى أخرى كاللحم يشوى فى النار أو يطبخ فى القدر فيدور به الفليان من جهة إلى أخرى ، ويقولون إذ ذاك على طريق التمنى : ليتنا أطعنا الله فى الدنيا وأطعنا رسوله فيما جاء نابه من أمر ونهى ، فما كنا نبتلى بهذا العذاب ، بل كنا مع أهل الجنة فى الجنة - يا لها حسرة وندامة ما أعظمها وأجلها .

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبقى مرتع مبتغيه وخيم
ونحو الآية قوله : « وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا » وقوله : « رَبُّمَا يُؤْذِي الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ » .
ثم ذكر بعض معاذيرهم بالقائم التبعة على من أضلهم من كبرائهم وساداتهم بقوله :

(وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) أى وقال الكافرون يومئذ وهم فى جهنم : ربنا إنا أطعنا أئمتنا فى الضلالة وكبراءنا فى الشرك فأضلونا السبيل ، وأزالونا عن محجة الحق وطريق الهدى من الإيمان بك والإقرار بوحدايتك والإخلاص لطاعتك فى الدنيا .

وفى هذا إحالة الذنب على غيرهم كما هى عادة المذنب يفعل ذلك وهو يعلم أنه لا يجديهِ نفعاً .

ثم ذكر أنهم يدعون ربهم على طريق التشفى ممن أوردتهم هذا المورد الوخيم ، أن يضاعف لهم العذاب ، إذ كانوا سبب ضلالهم ووقوهم فى بلوهم وإن كانوا يعلمون أن ذلك لا يخلصهم مما هم فيه ، فقالوا :

(ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) أى ربنا عذبهم مثلى عذابنا الذى تعذبنا به : مثلاً على ضلالهم ، ومثلاً على إضلالهم إيانا ، واخرهم خزياً عظيماً واطردهم من رحمتك .

روى الشيخان عن عبد الله بن عمرو أن أبابكر قال : يا رسول الله علمنى دعاء أدعونه فى صلاتى ، قال : « قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى ، إناك أنت الغفور الرحيم » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ
مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَحْيُهُ (٦٩) .

شرح المفردات

الوحية : هو ذو الجاه والمهزلة ومن يكون له من خصال الخير ما به يعرف ولا ينكر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن من يؤذى الله ورسوله يلعنه الله فى الدنيا والآخرة ، ولا شك أن هذا فى الإيذاء الذى يؤدى إلى الكفر ، وقد حصره الله فى النفاق ومرض القلب والإرجاف على المسلمين - أعقب ذلك بإيذاء دون ذلك لا يورث الكفر كعدم الرضا بقسمة النبى صلى الله عليه وسلم للفى . ونهى الناس عنه أيضا ، وذكر أن بنى إسرائيل قد آذوا موسى ونسبوا إليه ما ليس فيه فبرأه الله منه لأنه ذو كرامة ومنزلة لديه فلا يلصق به ما هو نقص فيه .

الإيضاح

يأيتها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تؤذوا الرسول بقول يكرهه ولا بفعل لا يحبه ، ولا تكونوا أمثال الذين آذوا موسى نبي الله فرموه بالغيب كذبا وباطلا ، فبرأه الله مما قالوه من الكذب والزور بما أظهر من الأدلة على كذبهم ، وقد كان موسى ذا وجاهة وكرامة عند ربه لا يسأله شيئا إلا أعطاه إياه .

ولم يعين لنا الكتاب الكريم ما قالوا فى موسى ، ومن الخير ألا نعيّنه حتى لا يكون ذلك رجما بالغيب دون أن يقوم عليه دليل ، وقد اختلفوا فيه أهو عيب فى بدنه كبرص ونحوه ، أم هو عيب فى خلقه ؟ فقد رووا أن قارون حرّض بغيا على قذفه بنفسها فعصمه الله من كذبها ، وقيل إنهم اتهموه بقتل هرون لما خرج معه إلى الطور ومات هناك ثم استبان لهم بعد أنه مات حتف أنفه .

روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال : « قسم رسول الله ذات يوم قسما فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله فأحرّ وجهه ثم قال : رحمة الله على موسى فقد أودى بأكثر من هذا فصبر » .

وروى أحمد عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « لا يبلّغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » .

وعنه أيضا أنه قال : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مال فقسمه ، قال فمرت رجلين ، وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أريد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة ، قال فثبتت حتى سمعت ما قال ، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إنك قلت لنا : لا يبلغني أحد عن أصحابي شيئا وإنى مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا ، فاجز وجه رسول الله وشق عليه ثم قال : دعنا منك لقد أودى موسى بأكثر من هذا فصير » .

ومن هذا يتبين أن إيذاء موسى كان بالقدح في أعماله وتصرفاته ، لا بالعيب في بدنه كما روى .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) .

شرح المفردات

القول السديد : القول الصدق الذي يراد به الوصول إلى الحق ، من قولهم : سدد سهمه إذا وجهه للغرض المرعى ولم يعدل به عن سميته .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أو فعل ، أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأقوال والأفعال التي تكون سببا في الفوز والنجاة في الدار الآخرة ، والقرب من الله سبحانه والخطوة إليه .

الإيضاح

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ أَنْ تَعَصَوْهُ فَتَسْتَحِقُوا بِذَلِكَ عِقَابَهُ ، وَقُولُوا
فِي رَسُولِ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ قَوْلًا قَاصِدًا غَيْرَ جَائِرٍ ، حَتَّى غَيْرَ بَاطِلٍ ، يُوَفِّقْكُمْ لِمَصَالِحِ الْأَعْمَالِ
وَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ فَلَا يَعْاقِبَكُمْ عَلَيْهَا .

وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَيُفْعَلْ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ وَيَنْتَهَ عَمَّا نَهَا عَنْهُ وَيَقِلَّ السَّيِّدُ مِنَ
الْقَوْلِ فَقَدْ ظَفَرَ بِالثُّبُوتِ الْعَظِيمِ وَالْكَرَامَةِ يَوْمَ الْعَرْضِ الْأَكْبَرِ .

وَالْخِلَاصَةُ — إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ أَمْرُ الْمُؤْمِنِينَ بِشَيْئَيْنِ : الصَّدَقِ فِي الْأَقْوَالِ ، وَالْخَيْرِ
فِي الْأَفْعَالِ ، وَبِذَلِكَ يَكُونُونَ قَدْ اتَّقَوْا اللَّهَ وَخَافُوا عِقَابَهُ ، ثُمَّ وَعَدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِأَمْرَيْنِ :
(١) إِصْلَاحِ الْأَعْمَالِ إِذْ يَتَّقَوْنَ بِصِلَاحِ الْعَمَلِ ، وَالْعَمَلُ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ إِلَى أَعْلَى
عَالِيَيْنَ وَيَجْعَلُهُ يَتِمُّعُ بِالنِّعَمِ الْمُقِيمِ فِي الْجَنَّةِ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا .

(٢) مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ وَسِتْرِ الْعُيُوبِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ .

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ
يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)
لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٣)

شرح المفردات

العرض هنا : النظر إلى استعداد السموات والأرض ، والأمانة كل ما يؤتمن
عليه المرء من أمر ونهى في شئون الدين والدنيا ، والمراد بها هنا التكليف الدينية ،
وسميت أمانة من قبل أنها حقوق أوجبها الله على المكلفين واثمتهم عليها وأوجب
عليهم تلقيها بالطاعة والالتقياد وأمرهم بالمحافظة عليها وأدائها دون الإخلال بشيء منها ،

فأبين : أى كُنَّ غير مستعدات لها ، وحملها الإنسان : أى كان مستعدا لها ، إنه كان ظلوما : أى كثير الظلم لما غلب عليه من القوة الغضبية ، جهولا : أى كثير الجهل لعواقب الأمور لما غلب عليه من القوة الشهوية .

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه عظم شأن طاعة الله ورسوله ، وأن من يراعيها فله الفوز العظيم ، ومن يتركها استحق العذاب الأليم - أردف ذلك بعظم شأن ما تنال به تلك الطاعة من فعل التكاليف الشرعية وأن حصولها عز يز شاق على النفوس ، ثم بيان أن ما يصدر منهم من الطاعة أو يكون منهم من إباء بعدم القبول والالتزام إنما يكون بلا جبر ولا إكراه .

الإيضاح

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) أى إنا لم نخلق السموات والأرض على عظم أجرامها وقوة أسرها مستعدة لحمل التكاليف بتلقى الأوامر والنواهي والتبصر فى شؤون الدين والدنيا ، ولكن خلقنا الإنسان على ضعف مُنْتَه وصغر جِرمه مستعدا لتلقيها والقيام بأعبائها ، وهو مع ذلك قد غلبت عليه الانفعالات النفسية الداعية إلى الغضب فكان ظلوما لغيره ، وركب فيه حب الشهوات والميل إلى عدم التدبر فى عواقب الأمور ، ومن ثم كلفناه بتلك التكاليف لتكسر سورة تلك القوى وتخفف من سلطانها عليه وتسكبت من جماحها حتى لا توقعه فى مواقع الردى .

ثم بين عاقبة تلك التكاليف فقال :

(ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أى وكان عاقبة حمل الإنسان لهذه الأمانة أن يعذب من خانها وأبى الطاعة

والانقياد لها من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويقبل توبة المؤمنين
والمؤمنات إذا رجعوا إليه وأنابوا ، لتلافيهم ما فرط منهم من الجهل وعدم التبصر
في العواقب وتداركهم ذلك بالتوبة .

ثم علل قبوله لتوبتهم بقوله :

(وكان الله غفورا رحيمًا) أى وكان الله مستارا لذنوب عباده كثير الرحمة بهم ،
ومن ثم قبل توبة من أناب إليه ورجع إلى حظيرة قدسه وأخلص له العمل وتلافى
ما فرط منه من الزلات ، وأثابه على طاعته بالفوز العظيم .

نسألك اللهم أن تتوب علينا ، وتغفر لنا ما فرط منا من الزلات ، وتثيبنا بالفوز
العظيم فى الجنات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات .

تلييه

ذكر سبحانه فى هذه السورة الكثير من الشؤون الزوجية وكيف تعامل الزوجات ،
وقد رأينا أن نذكر هنا مسألتين كثر الخوض فيهما من أرباب الأديان الأخرى
ومن نابتة المسلمين الذين تعلموا فى مدارسهم وسمعوا كلام المبشرين ، ظنا منهم أنهم
وجدوا مغفرا فى الإسلام وأصابوا هدفا يرمى الدين ، ويجعل معتنقيه مضغة فى أفواه
السامعين ، وأنى لهم ذلك ، ولئيمهم فسكروا وتأملوا ، قبل أن يتكلموا .

أرى العناء تكبر أن تصادا فعائد من تطبيق له عفادا

(١) تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم وكثرتهن بينما لم يبح مثل ذلك لأمته .

(٢) إباحة تعدد الزوجات لعامة المسلمين .

ومن ثم وجب علينا أن نعيث اللثام عن الأسباب التى دعت إلى كل منهما .

أسباب تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم

قبل أن ندخل فى تفاصيل البحث نذكر لك أن النبى صلى الله عليه وسلم عاش
مع خديجة خمس وعشرين سنة لم يتزوج سواها ، وكانت سنة إذ ذاك ناهزت

الحسين ، وكان قد تزوجها في شرح شبابه إذ كانت سنه وقتئذ خمساً وعشرين سنة وكانت سنها أربعين وعاشا معاً عيشاً هنياً شعاره الإخلاص والوفاء ، وكانت من أكبر أنصاره على الكفار الذين سخرؤا منه وألقوا به ضرباً شتى من الأذى ، ولم يشأ أن يتزوج غيرها مع ما كان يبيحه له عرف قومه ، بل ظل وفيالها حتى توفيت فحزن عليها حزناً شديداً وسمى عام وفاتها عام الحزن ، ولم ينقطع عن ذكرها طوال حياته .

والآن حق علينا أن نذكر لك الأسباب التي حدثت النبي صلى الله عليه وسلم إلى التعدد؛ وهي قسمان : أسباب عامة وأسباب خاصة :

الأسباب العامة

(١) إن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم عامة للرجال والنساء ، ومن التشريع ما هو مشترك بين الرجل والمرأة وما هو خاص بأحدهما ، وكل يحتاج في تلقينه إلى عدد ليس بالقليل لتفرق المرسل إليهم وكثرتهم وقصر زمن حياة الرسول ، وكثرة الأحكام ، وإلا لم يحصل التبليغ على الوجه الأمثل .

ومن الأحكام المتعلقة بالنساء ما تستحي المرأة أن تعرفه من الرجل ، ويستحي الرجل من تبليغه للمرأة ، ألا ترى إلى ما روى عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : كيف أغتسل من الحيض ؟ قال : خذي فرصة ممسكة (قطعة قطن) فتوضي - قالها ثلاثاً وهو في كل ذلك يقول : سبحان الله عند إعادتها السؤال ، ثم أعرض عنها بوجهه استحياء ، فأخذتها عائشة وأخبرتها بما يريد النبي صلى الله عليه وسلم .

ومن ثم وجب أن يتلقى الأحكام الخاصة بالنساء من الرسول صلى الله عليه وسلم عدد كثير منهن ، وهن يبلغن ذلك إلى النساء ، ولا يصلح للتلقى عنه إلا أزواجه ، لأنهن لهن خصائص تمكنهن من معرفة أغراض النبي دون تأفف ولا استحياء ،

يرشد إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « خذوا نصف دينكم عن هذه الحبراء » يريد عائشة رضى الله عنها ، والعرب تقول امرأة حمراء : أى بيضاء .

(٢) إن المصاهرة من أقوى عوامل التآلف والتناصر كما هو مشاهد معروف ، والدعوة في أول أمرها كانت في حاجة ماسة إلى الإكثار من ذلك ، لاجتذاب القبائل إليه ومؤازرتهم له ، للدود عوادى الضالين ، وكف أذاهم عنه ، ومن ثم كان أكثر زوجاته من قریش سيدة العرب .

(٣) إن المؤمنين كانوا يزون أن أعظم شرف وأمتن قربة إلى الله تعالى مصاهرتهم لنبية وقرينهم منه ، فمن ظفر بالمصاهرة فقد أدرك ما يرجو . ألا ترى أن عمر رضى الله عنه أسف جد الأسف حين فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته وقال : لا يعبأ بعدها بعمر ، ولم ينكشف عنه الهم حتى روجعت ، وأن علياً كرم الله وجهه على اتصاله برسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق النسب وشرف اقترانه بالزهراء رغب في أن يزوجه أخته أم هانئ بنت أبي طالب ليتضاعف شرفه ولم يمنعه من ذلك إلا خوفها أن تقصر في القيام بحقوق الرسول مع خدمة أبنائها .

الأسباب الخاصة بزواج كل واحدة من أمهات المؤمنين

(١) تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بعد خديجة سودة بنت زمعة أرملة السكران بن عمرو الذى أسلم واضطر إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة هرباً من اضطهاد المشركين ومات هناك وأصبحت امرأته بلامعين ، وهى أرمل رجل مات في سبيل الدفاع عن الحق ، فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وفاء لرجل غادر الأهل والأوطان احتفاظاً بعقيدته ، وقد شاركته هذه الزوجة في أهوال التفرير والبنى ، وحماية لها من أهلها أن يفتنوها ، لأنها هاجرت مع زوجها على غير رغبتهم .

(٢) تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية وعمرها زهاء خمسين عاماً ، وكان زواجه منها سبباً في دخول خالد بن الوليد في دين الله ، وهو المجاهد الكبير والبطل العظيم ،

وهو الذي غلب الروم على أمرهم فيما بعد ، وله في الإسلام أيام غُرَّة محبلة - إلى أن زواجها بالنبي صلى الله عليه وسلم يستر لدوى قرباها وسيلة للعيش قطعوا من جوع وأمنوا من خوف وأثروا بعد فاقة .

(٣) تزوج جويرية وكان أبوها الخارث بن ضرار سيد بني المصطلق بن خزاعة جمع قبل إسلامه جموعا كثيرة لمحاربة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما التقى الجمعان عرض عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام فأبوه فخار بهم حتى هزموا ووقعت جويرية في سهم ثابت بن قيس ، فبكاها على سبع أواق من الذهب فلم تر معينا لها غير النبي صلى الله عليه وسلم فجاءت إليه وأدلت بنفسها وطلبت حريتها فتذكر النبي صلى الله عليه وسلم ما كان لأهلها من العز والسؤدد وما صاروا إليه بسوء التدبير والعناد ، فأحسن إليها وإلى قومها بأداء ما عليها من نجوم ثم تزوجها فقال المسلمون بعد أن اقتسموا بني المصطلق : إن أصهار رسول الله لا يسترقون ، وأعتقوا من بأيديهم من سيهم ، وعلى إثر ذلك أسلم بنو المصطلق شكرا لله على الحرية بعد ذل الكفر والأسر .

(٤) تزوج السيدة عائشة مكافأة لأبي بكر الصديق ، إذ كان شديد التمسك برسول الله صلى الله عليه وسلم مولعا بالتقرب منه ، فكان ذلك قرعة عين لها ولأبويها ونفرا لدوى قرباها ، وكان عبد الله بن الزبير (ابن أختها) يفاخر بني هاشم بذلك .

(٥) تزوج أم المؤمنين حفصة بنت عمر مكافأة لزوجها الذي توفي مجروحا في موقعة بدر ، وفي تلك الحفبة كانت السيدة رقية بنت الرسول وزوج عثمان قد توفيت ، فعرض عمر ابنته على عثمان فأعرض عنها رغبة في أم كلثوم بضعة الرسول ليستديم له بذلك الشرف ، فعز هذا على عمر وأفتت نفسه فشكاه إلى أبي بكر فقال له لعلها تتزوج من هو خير منه ويتزوج من هي خير منها له (يريد زواج عثمان بأم كلثوم وزواج حفصة بالنبي صلى الله عليه وسلم) .

(٦) تزوج صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير ، وكانت قد وقعت

في السبي مع عشيرتها ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها رافة بها إذ ذلت بعد عزة واسترقت وهي السيدة الشريفة عند أهلها ، وتأليفا لقومها حتى يدخلوا في كنف الإسلام وينصووا تحت لوائه .

(٧) تزوج زينب بنت جحش الأسدية ، لإبطال عادة جاهلية كانت متأصلة عند العرب وهي التبنّي بتزويج الدعي منزلة الابن الحقيقي ، وإذا أراد الله إبطال هذه العادة جعل رسوله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة في هذا ، فسعى في تزويج زيد موله بعد أن اعتقه بزيب ذات الحسب والمجد فأنت هي وأخوها عبد الله ، وأبت أن تكون زوجا لدعي غير كفء ، فأُنزل الله « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مَوَدَّةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » فرضيا بقضاء الله ورسوله غير أنها كانت نافرة من هذا القران مترفعة عن زيد ضائعة به ذرعا فأثر فراقها فسأل الرسول الإذن في ذلك فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفى في نفسه ما الله مبديه من تزوجه منها بعد زيد وخشى أن يقول الناس : تزوج محمد من زيد ابنه .

ولما لم يبق لزيد فيها شيء من الرغبة طلقها فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم إبطالا لتلك العادة وهي إعطاء المتبني حكم الابن ، وقد تقدم تفصيل هذا في أثناء تفسير السورة بشيء من البسط والإيضاح .

ومما سلف يستبين لك أن ما يتقوله غير المنصفين من الغربيين من أن النبي صلى الله عليه وسلم خول لنفسه ميزة لم يعطها لأحد من أتباعه - لا وجه له من الصحة فإن زواجه بأمهات المؤمنين كان لأغراض اجتماعية اقتضتها الدعوة ، ودعا إليها حب النعمة ، ولا سيما إذا علم أنه لم يتزوج بكرا قط إلا عائشة ، وأن من أمهات المؤمنين من كن في سن الكهولة أو جاوزنها .

أسباب إباحة تعدد الزوجات في الإسلام

يجدر بذوى الحصافة فى رأى أن ينظروا إلى الأسباب التى دعت أن يبيح الإسلام تعدد الزوجات دون أن ينقموا عليه ذلك ويرموه بالقسوة ، فإن فى بعضها ما هو موجب للتعدد لا يحيزله فحسب .

وهالك أهم الأسباب :

(١) قد تصاب المرأة أحيانا بمرض مزمن أو مرض معدٍ يجعلها غير قادرة على القيام بالواجبات الزوجية ، فيضطر الرجل إلى أن يقترف ما ينافى الشرف والمروءة ويغضب الله ورسوله إن لم يبيح له أن يتزوج بأخرى .

(٢) دل الاستقراء على أن عدد النساء يربو على عدد الرجال ، لما يعانیه هؤلاء من الأعمال الشاقة التى تنهك القوى وتضوى الأجسام ، ولا سيما الحروب الطاحنة ، فإذا منع التعدد لا يجد بعض النساء أزواجا يحصنونهن ويقومون بشئونهن ، فيكثر الفساد ويلحق الأسر انمار وتعفن الحياة بأنبيها .

(٣) حضت الشريعة الإسلامية على كثرة النسل لتقوى شوكة الإسلام وتعلو سطوته وتنفذ كلمته حتى ترهبه الأعداء وتنقيه الأمم المناوئة له ، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بإباحة تعدد الزوجات ، لأن المنع منقص إلى تناقص النسل ، ولا أدل على ذلك من أن عقلاء الأمم فى الغرب أشفقوا على أممهم لما اعتراها من نقص فى النسل بسبب منع التعدد من ناحية وإحجام كثير من شبابهم عن الزواج والاجتزاء بالسفاح فرارا من الحقوق الزوجية وأعباء الأولاد من ناحية أخرى ، ومن ثم لجأ كثير من الدول الغربية إلى ارتباط بعضهم ببعض بالحلف والعهود والمواثيق ، طلبا لنيل فائدة التكاثر ، وبذلك تبقى لهم السيادة الدولية .

(٤) دل الإحصاء في كثير من البلاد الغربية على أن خطر تعدد الزوجات أدى إلى كثرة الأولاد غير الشرعيين مما حدا ببعض المفكرين إلى النظر في تورثهم.

(٥) كان من نتائج منع التعدد انتشار كثير من الأمراض الفتاكة التي أصابت الرجال والنساء والأطفال حتى عجز الطب عن مكافحتها وتغلغل الداء وعز الدواء، مما جعل بعض البلاد تسن القوانين التي تمنع عقد الزواج إلا بعد إحضار صك رسمي بخلو الزوجين من الأمراض المعدية والأمراض التي تجعل النسل ضعيفا ضاويا لا يستطيع الكفاح في الحياة .

ما حوته السورة الكريمة من أغراض ومقاصد

- (١) الأمر بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين .
- (٢) وجوب اتباع ما ينزل به الوحي مع ضرب المثل لذلك .
- (٣) إبطال العادة الجاهلية وهي إعطاء المتبني حكم الابن وبيان أن الدين منه براء .
- (٤) إبطال التوريث بالخلف والتوريث بالهجرة ، وإرجاع التوريث إلى الرحم والقربة .
- (٥) ذكر النعمة التي أنعم بها عليهم في وقعة الخندق بعد أن اشتد بهم الخطب .
- (٦) تخيير النبي نساءه بين شيئين : الفراق إذا أردن زينة الحياة الدنيا والبقاء معه إذا أحببن الله ورسوله والدار الآخرة .
- (٧) التشديد عليهن بمضاعفة العذاب إذا ارتكبن الفواحش ، ونهيهن عن الخضوع في القول وأمرهن بالقرار في البيوت ، وتعليمهن كتاب الله وسنة رسوله ، ونهيهن عن التبرج .

- (٨) قصة زينب بنت جحش وزيد مولى رسوله صلى الله عليه وسلم .
- (٩) ما أحل لثيبه من النساء وتحريم الزواج عليه بعد ذلك .
- (١٠) النهى عن إيذاء المؤمنين للنبي صلى الله عليه وسلم إذا دخلوا بيته اطعام ونحوه .
- (١١) الأمر بكلام أمهات المؤمنين من وراء حجاب إذا طلب منهن شيء إلا الآباء والأبناء والأرقاء .
- (١٢) أمرهن بإرخاء الجلباب إذا خرجن لقضاء حاجة .
- (١٣) تهديد المنافقين وضعاف الإيمان والمرجفين فى المدينة .
- (١٤) سؤال المشركين عن الساعة متى هى ؟
- (١٥) النهى عن إيذاء النبي حتى لا يكونوا كبنى إسرائيل الذين آذوا موسى .

سورة سبأ

هي مكية إلا الآية السادسة منها فمدنية ، وعدد آياتها أربع وخمسون نزلت بعد لقمان .

ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) إن الصفات التي أجريت على الله في مفتحتها تشاكل الصفات التي نسبت إليه في مختتم السورة السالفة .

(٢) إنه في السورة السابقة قد ذكر سؤال الكفار عن الساعة استهزاء ، وهنا حكى عنهم إنكارها صريحا وطعنهم ، على من يقول بالبعث ، وقال هنا ما لم يقله هناك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلْجِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) .

شرح المفردات

الحمد : هو الثناء على الله بما هو أهله ، والحكيم : الذي أحكم أمر الدارين ودرره على حسب ما تقتضيه الحكمة ، والخبير : هو الذي يعلم بواطن الأمور وخوافيها ، يلجج في الأرض : أي يدخل فيها ، ويعرج : أي يصعد .

الإيضاح

(الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض) أي الحمد الكامل للمعبود المالك لجميع ما في السموات وما في الأرض دون كل ما يعبدونه ودون كل شيء سواه إذ لا مالك شيء من ذلك غيره .

والخلاصة — إن له عز وجل جميع ما في السموات وما في الأرض خلقا وملكا وتصرفا بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة .

ولما بين اختصاصه بالحمد في الدنيا أعقبه ببيان أن له وحده الحمد في الآخرة فقال :
(وله الحمد في الآخرة) أى وله الحمد في الآخرة خالصا دون سواء على ما أنعم به فيها كما حكى عن أهلها من قولهم : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » وقولهم : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ » .

(وهو الحكيم الخبير) أى وهو المدبر لشئون خلقه على ما تقتضيه الحكمة ، الخبير ببواطن الأمور ومكنوناتها .

ثم فصل بعض ما يحيط به علمه من الأمور التي نيطت بها مصالح عباده الدنيوية والأخروية فقال :

(يعلم ما يليق في الأرض وما يخرج منها) أى يعلم ما يدخل في الأرض كالغيث ينفذ في موضع وينبع في آخر ، وكالكنوز والدفائن والأموات ، وما يخرج منها كالحيوان والنبات والغازات وماء العيون والمعادن التي مضى عليها آلاف السنين ، ومخلفات الأمم ومصنوعاتهم كمخلفات المصريين القدماء ونقوش آشور وبابل ومعجائب أهل سبأ وصناعاتهم مما استخرجه علماء العاديات من الأوربيين في القرن الماضي والعصر الحاضر ، ولا يزالون كل يوم يكشفون جديدا يدل على أن الشرق كان ذا مدنية وحضارة لا يدايتها أعظم ما يوجد في الغرب الآن في أرق ممالكه .

(وما ينزل من السماء) كالملائكة والكتب والأرزاق والمطر والصواعق .
(وما يعرج فيها) كالملائكة وأعمال العباد والأشجار والدخان والطائرات والمطارد الجوية .

(وهو الرحيم الغفور) أى وهو مع كثرة نعمه وسبوغ فضله ، رحيما بعباده فلا يعاجل بالعقوبة ، غفور لذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمٌ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦)

شرح المفردات

لا يعزب عنه : أى لا يفوته علمه ، مقدار ذرة : أى مقدار أصغر نملة ، والكتاب المبين : اللوح المحفوظ ، رزق كريم : أى حسن لا تلب فيه ولا من عليه ، معاجزين : أى مسابقين يظنون أنهم يفوتونا فلا تقدر عليهم ، رجز : أى عذاب شديد ، العزيز أى الذى يغلب ولا يُغلب ، الحميد : أى المحمود فى جميع شئونه ، وصراطه : هو التوحيد والتقوى .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن له الحمد فى الآخرة على ما أسدى إلى عباده من النعم ، أردف ذلك ببيان أن كثيرا منهم ينكروا أشد الإنكار ويستهزئ بمن يشبهوا ويعتقد أنها ستكون ، وقد بلغ من تهكمهم أنهم يستعجلون مجيئها ظنا منهم أن هذه خيالات بل أضغاث أحلام ، وقد ذكر أن مجيئها ضربة لازب ، لتجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، ثم أعقب هذا ببيان أن الناس فريقان : مؤمن

بآيات ربه يرى أنها الحق وأنها تهدي إلى الصراط المستقيم ، ومعاند جاحد بها يسعى في إبطالها ، ومآل أمره العذاب الأليم على مادمي به نفسه من قبيح الخلال .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) أى وقال الذين ستروا ما أرشدتهم إليه عقولهم من البراهين الدالة على قيام الساعة : إنه لا رجعة بعد هذه الدنيا ولا بعث ولا حساب ، إن هي إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما نحن بمبعوثين .

وقد أمر الله رسوله أن يرد عليهم مؤكدا لهم بطلان ما يدعون .

(قل بلى وربي لتأتينكم) أى قل لهم إنها وربي لأتية لا ريب فيها .

وهذه الآية إحدى آيات ثلاث أمر الله فيها رسوله أن يقسم بربه العظيم على

وقوع المعاد حين أنكره من أنكره من أهل الشرك والعناد ، فأحذاهن في سورة

يونس « وَيَسْتَدْبِرُونَكَ أَفْحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ أَحَقُّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ »

وثانيتهما في سورة التغابن « زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْصُوا . قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُعْصِينَ

ثُمَّ لَتَنْبُوْنَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » وثالثتهما ما هنا .

ثم وصف المولى نفسه بكامل العلم وعظيم الإحاطة بالموجودات مما يؤكده صحة

البعث فقال :

(عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من

ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) أى إن وقت مجيئها لا يعلمه سوى علام الغيوب

الذى لا يغيب عن علمه شيء في السموات ولا في الأرض من ذرة فما دونها ولا ما فوقها ،

أين كانت وأين ذهبت ، فكل ذلك محفوظ في كتاب مبين ، فالعظام وإن تلاشت ،

واللحوم وإن تفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ، فيعيدها كما بدأها

أول مرة وهو بكل شيء عليم .

ثم بين الحكمة في إعادة الأجسام وقيام الساعة بقوله : ثُمَّ يَوْمَ يَأْتِي السَّاعَةُ

(ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) أى أثبت ذلك فى الكتاب المبين ليثيب الذين آمنوا بالله وعملوا بما أمرهم الله ورسوله به واتهم عما نهاهم عنه ، وأولئك لهم مغفرة من ربهم لذنوبهم ، وعيش هنيء فى الجنة لا تعب فيه ولا من عليه .

والخلاصة — إن الحكمة تقتضى وجودها وليس هناك مانع منها ، فالعلم المحيط بالغيب موجود ، فقد وجد المقتضى لوجودها وارتفع المانع من إثباتها .

(والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم) أى وليجزى الذين سعوا فى إبطال أدلتنا وحججنا عناداً منهم وكفراً ، وظنوا أنهم سبقونا بأنفسهم فلا تقدر عليهم بشديد العذاب ، لما اجتروا من السيئات ودسوا به أنفسهم من قبيح الأعمال .

وإجمال ذلك — إن الساعة آتية لا محالة ، لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين .

ونحو الآية قوله : « أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ » وقوله : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

فهم استشهد باعتراف أولى العلم ممن آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضراهما بصحة ما أنزل إليك ليرد به على أولئك الجهلة الساعين فى الآيات الذين أنكروا الساعة فقال :

(ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) أى وقال الجهلة المنكرون للبعث والخسر والحساب — إنه لا رجعة بعد هذه الدنيا ؛ وقال العالمون من أهل الكتاب ومن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يأتى من بعدهم من أمته : إن الذى أنزل إليك من ربك مثبتاً لقيام الساعة

ومجازاة كل عامل بما عمل من خير أو شر - هو الحق الذي لا شك فيه وأنه هو الذي يرشد من اتبعه وعمل به إلى سبيل الله الذي لا يغالب ولا يمانع وهو القاهر لكل شيء والغالب له ، وهو الحمود على جميع أقواله وأفعاله وما أنزله من شرع ودين .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ
كُلٌّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَنِ خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ
جِنَّةٌ ، بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨)
أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا يَبْنِي أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنْ نَشَأْ
نُخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩) .

شرح المفردات

تمزيق الشيء : تقطيع أوصاله وجعله قطعاً قطعاً ، يقال ثوب مزرق وممزوق ومتمزق وممزق ، ومنه قوله :

إذا كنت ما كولا فكن خيراً كل وإلا فأدركني ولما أمزق
والافتراء : اختلاق الكذب ، والجنة : الجنون وزوال العقل ، كسفاً : قطعاً واحداً ،
كسفة ، منيب : أي راجع إلى ربه مطيع له .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنهم أنكروا الساعة ورد عليهم ما قالوا وأنكده كل التأكيد ، ثم ذكر ما يكون إذ ذاك من جزاء المؤمن على ما عمل من صالح الأعمال وجزاء الساعى فى تكذيب الآيات بالتمذيب على السيئات لقاء ما دسّى به نفسه من

اجتراح المعاصى وفاسد المعتقدات - أردف ذلك بذكر مقال للكافرين ذكروه تهكما واستهزاء ، ثم ذكر الدليل على صحة البعث بخلق السموات والأرض ، ثم توعدهم على تكذيبهم بأشد الوعيد لعلمهم يرجعون عن عنادهم ويثوبون إلى رشادهم .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ؟) أى وقال قريش بعضهم لبعض تعجبا واستهزاء وتهكما وإنكارا : هل سمعتم برجل يقول : إنا إذا تقطعت أوصالنا ، وتفرقت أبداننا ، وبليت عظامنا ، نرجع كرة أخرى أحياء كما كنا ونحاسب على أعمالنا ، ثم ثاب على الإحسان إحسانا ونجزي على اجتراح الآثام آلاما ، ونارا تلظى تشوى الوجوه والأجسام .

وخلاصة ذلك - إنه يقول إذا أكلتكم الأرض وصرتم رفاتا وعظاما وقطعتكم السباع والطيور ستحيون وتبعثون ثم تحاسبون على ما فرط منكم من صالح العمل وسيئه ؛ ثم قسموا حاله فى الإخبار بهذا فى نظرم قسمين فقالوا :

(أفترى على الله كذبا أم به جنة ؟) أى إن أمره فى هذا دائر بين أمرين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه أوحى إليه ذلك ، أو أنه لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون .

وإجمال ذلك - إنه إما أن يكون مفتريا على الله وإما أن يكون مجنونا .

فرد الله عليهم مقالهم وأثبت لهم ما هو أشد وأنكى فقال :

(بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) أى ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه ، بل إن محمدا هو البر الرشيد الذى جاء بالحق وإنهم هم الكذبة الجهلة الأغبياء الذين بلغوا الغاية فى اختلال العقل وأوغلوا فى الضلال ، وبعدوا عن الإدراك والفهم ، وليس هذا إلا الجنون بعينه ، وسيؤدى ذلك بهم إلى

العذاب ، إذ هم قد أنكروا حكمة الله في خلق العالم وكذبوه في وعده ووعدته ، وتعرضوا لخطئه .

ثم ذكرهم بما يعاينون مما يدل على كمال قدرته ، وفيه تنبيه لهم إلى ما يحتمل أن يقع لهم من القوارع التي تهلكهم ، وتهديد على ما اجتروا من السيئات فقال :

(أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ؟ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء) أى أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالمعاد الجاحدون للبعث بعد الممات ، فيعلموا أنهم حيث كانوا فإن أرضي وسمائي محيطة بهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، فيرتدعوا عن جهلهم ، ويزدجروا عن تكذيبهم حذر أن تأمر الأرض فتخسف بهم أو تأمر السماء فتسقط عليهم كسفا ، فإنا إن نشأ أن نفعل ذلك بهم فعلنا لكننا نؤخره لعلنا نغفوناه .

وإجمال ذلك — إنه تعالى ذكرهم بأظهر شيء لديهم يعايشونه حينما وجدوا ، ولا يغيب عن أبصارهم حينما ذهبوا ، وفيه الدلائل على قدرته على البعث والإحياء ، فإن من قدر على خلق تلك الأجرام العظام لاتعجزه إعادة الأجسام ، فهي إذا قيست بها كانت كأنها لا شيء كما قال : « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » .

وفي هذا ما لا يخفى من التنبيه إلى مزيد جهلهم المشار إليه بالضلال البعيد .

ثم ذكر ما هو كالعلة في الحث على الاستدلال بذلك ، ليزيح إنكارهم بالبعث فقال :

(إن في ذلك لآية لكل عبد متنب) أى إن في النظر إلى خلق السموات والأرض دلالة لكل عبد قطن متنب إلى ربه على كمال قدرته على بعث الأجساد ووقوع المعاد ، لأن من قدر على خلق هذه السموات على ارتفاعها واتساعها ، وعلى هذه الأرض على انخفاضها وطولها وعرضها — قادر على إعادة الأجسام ، ونشر

الريم من العظام ، كما قال « تَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنْ أَجْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)

شرح المفردات

فضلا : أى نعمة وإحسانا ، أَوِّبِي مَعَهُ : أى رَجِّعِي معه التسييح وردديه ، وألنا له الحديد : أى جعلناه فى يده كالشمع والعجين يصرفه كما يشاء من غير نار ولا طَرَق ، وسابغات من السبوغ وهو التمام والكمال : أى دروعا كاملات ، قدَّر أى اقتصد ، والسرد : النسج : أى اجعل النسج على قدر الحاجة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن فى خلق السموات والأرض آية لكل من أناب إلى الله ورجع إليه - أردف ذلك بذكر بعض من أنابوا إلى ربهم فأنعم عليهم بما آتاهم من الفضل المبين ، ومن جملتهم داود عليه السلام فقد جمع الله له النبوة والملك والجنود ذوى العدد والعدد ومنحه الصوت الرخيم ، فكان إذا سبج تسبج معه الجبال الراسيات ، وتقف له الطيور السارحات ، وعلمه سرد الدروع لتكون عُدَّةً للقائين وردِّاً للمجاهدين .

الإيضاح

(ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير) أى ولقد أعطينا داود منا نعمًا ومننا قفلنا للجبال وللطير رجعى معه التسبيح وردّديه إذا سبح ، وذلك بأن تحمله عليه إذا تأمل عجائبها فهى له مذكرات كما يذكر المسيح مسبحًا آخر .
 (وأنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد) أى وجعلنا الحديد فى يده
 فيما يسهل تصويره وتصريفه كما يشاء ، فيعمل منه الدروع وآلات الحرب على أتم
 النظم وأحكم الأوضاع ، فيجعل حلقاتها على قدر الحاجة فلا هى بالضيقة فتضعف
 ولا تؤدى وظيفتها لدى الكر والفر والشد والجذب ، ولا هى بالواسعة التى ربما ينال
 صاحبها من خلالها الأذى ، وهنا تعليم من الله له فى إجادة نسج الدروع .
 قال قتادة : إن داود أول من عملها حلقة وكانت قبل ذلك صفائح فكانت ثقالا .
 (واعملوا صالحا) أى واعمل يا داود أنت وآلک بظاعة الله فأجازيكم كفاء
 بما عملتم .

ثم علل هذا الأمر بقوله :

(إني بما تعملون بصير) أى إني مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم
 لا يخفى على شىء منها .
 وفى هذا ما لا يخفى من التنبيه والإغراء بإصلاح العمل والإخلاص فيه .

وَلَسَلِمْنَا إِلَىٰ رِيحٍ عَذُوبٍهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ
 وَمِنَ الْجُنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَرِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا
 نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ

وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ
مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ (١٣) .

شرح المفردات

غدوَّها شهر : أى جريانها بالغداة مسيرة شهر ، ورواحها شهر : أى وجريانها
بالعشى مسيرة شهر ، وأسلنا : أى أذبنا ، والقطر : النحاس المذاب ، ومن يزغ منهم
عن أمرنا : أى ومن يعدل عن طاعة سليمان ، عذاب السعير : أى العذاب الشديد
فى الدنيا ، والمحاريب واحدها محراب : وهو كل موضع مرتفع قال الشاعر :

وماذا عليه أن ذكرت أوانسا كغزلان رمل فى محاريب أقيال

والتماثيل : الصور ، والجفان واحدها جفنة : وهى القصعة ، والجوابى واحدها جابية :
وهى الحوض الكبير ، وقُدُور : واحدها قدر ، ورَاسِيَات : أى ثابتات على أنافها
لا تتحرك ولا تنزل عن أماكنها لعظمها ، الشكور : الباذل وسعه فى الشكر قد شغل
قلبه ولسانه وجوارحه به اعترافا واعتقادا وعملا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما منَّ به على داود من النبوة والملك - أردف ذلك بذكر
ما تفضل به على ابنه سليمان من تسخير الريح ، فتجرى من الغداة إلى منتصف النهار
مسيرة شهر ، ومن منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر ، وإذابة النحاس على نحو ما كان
لداود من إلانة الحديد وتسخير الجن عملة بين يديه يعملون له شتى المصنوعات من
قصور شاهحات وصور من نحاس وجفان كبيرة كالأحواض وقُدُور لا تتحرك لعظمها .
إذ كل منهما أناب إلى ربه وجلال تفكيره فى ملكوت السموات والأرض
وكان من المؤمنين الحبَّتين الذين هم على ربهم يتوكلون .

الإيضاح

عدّد سبحانه ما أنعم به على سليمان عليه السلام وهو أمور :
 (١) (وسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) أى وسخرنا لسليمان الريح
 تجرى بالغداة إلى منتصف النهار مسيرة شهر ، وتجري بالرواح من منتصف النهار إلى
 الليل مسيرة شهر .

قال قتادة تفسيرا للآية : كانت الريح تقطع به عليه السلام من الغدو إلى الزوال
 مسيرة شهر ومن الزوال إلى الغروب مسيرة شهر . وقال الحسن البصرى : كان يغدو على
 بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغدى بها ، ويذهب راثما من إصطخر فيبيت بكابل ،
 وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين إصطخر وكابل شهر كذلك .

(٢) (وأسلنا له عين القطر) أى وأذننا له النحاس كما أئنا الحديد لداود ،
 فكان يعمل منه أعماله وهو بارد دون حاجة إلى نار ، وقد سأل من معدنه فنمغ
 نبوع الماء من الينبوع فلذلك سماه عينا .

(٣) (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه
 من عذاب السعير) أى وسخرنا له من الجن من يبنى له البنايات وغيرها بقدرة
 ربه وتسخيره ، ومن يخرج منهم عن طاعته يذقه عذابا أليما فى الدنيا .

وإننا لنوقن بصدق ما جاء به القرآن من استخدام سليمان للجن ولا نعلم كيف
 كان يستخدمهم فى أعماله ، ولكن نشاهد آثار استخدامه لهم من المباني الشاهقة
 والقصور العظيمة والتماثيل البديعة التى فصلها سبحانه بقوله :

(يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات)
 أى يعملون له ما يشاء من القصور الشاهقة والصور المختلفة من النحاس والزجاج
 والرخام ونحوها ، والجفان الكبيرة التى تكفى لعشرات الناس ، قال الأعشى يمدح
 آل جفنة من الغسانة بالشام :

نَقَى الدَّمَ عَنْ آلِ أُحْمَلَقَ جَفَنَةً كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفَهُقُ
الْقُدُورِ الثَّوَابِ فِي أَمَا كُنْهَا الَّتِي لَا تَحْرُكُ وَلَا تَتَحَوَّلُ لِكِبَرِهَا وَعَظَمِهَا .

(اعملوا آل داود شكرا) أى وقلنا لهم : اعملوا يا آل داود بطاعة الله شكرا له
على نعمه التي أنعمها عليكم في الدين والدنيا . روى أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد
المنبر فتلأ هذه الآية ثم قال « ثلاث من أوتيهن فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود ،
قلنا ما هن ؟ فقال العدل في الرضا والغضب ، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية الله
في السر والعلانية » أخرجه الترمذى .

والشكر كما يكون بالفعل يكون بالقول ويكون بالنية كما قال :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

ثم ذكر السبب في طلب الشكر منهم فقال :

(وقليل من عبادى الشكور) أى وقليل من عبادى من يطيعنى شكرا
لنعمتى ، فيصرف ما أنعمت به عليه فيما يرضينى ، وقد قيل : الشكور من يرى
عجزه عن الشكر .

ونحو الآية قوله : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ) وعن
عائشة رضى الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الله حتى تفتطر
قدماه ، فقلت له : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال
أفلا أكون عبدا شكورا » أخرجه مسلم في صحيحه .

فَلَمَّا قُضِيَنا عَلَيْهِ الْمَوْتُ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ
تَأْكُلُ مِنْسَأَتُهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنَّهُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ
مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) .

شرح المفردات

قضيئنا عليه : أى حكمنا عليه ، دابة الأرض : هى الأرضة (بفتحات) التى تأكل الخشب ونحوها ، والنسأة : العصا ؛ من نسأت البعير إذا طردته ، قال الشاعر :
ضربنا بمنسأة وجهه فصار بذاك مهينا ذليلا
لأنها يطرد بها ، وخر : سقط ، وما لبثوا : أى ما أقاموا ، فى العذاب المهين : أى فى الأعمال الشاقة التى كلفوا بها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه عظمة سليمان وتسخيره الريح والجن - أردف ذلك ببيان أنه لم ينتج أحد من الموت بل قضى عليه به ، تنبيهها للخلق إلى أن الموت لا بد منه ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة .

الإيضاح

إنما لما قضيئنا قضاءنا على سليمان بالموت فأتى لم يدل الجن على موته إلا الأرضة التى وقعت فى عصاه من داخلها ؛ إذ بينا هو متكى عليها وقد وافاه القضاء المحتوم انكسرت فسقط على الأرض واستبان للجن أنهم لا يعلمون الغيب كما كانوا يزعمون ، ولو علموه لما أقاموا فى الأعمال الشاقة التى كانوا يعملونها ظانين أنه حى .
والكتاب الكريم لم يحدد المدة التى قضاها سليمان وهو متكى على عصاه حتى علم الجن بموته ، وقد روى القصاصون أنها كانت سنة ، ومثل هذا لا ينبغي الركون إليه ، فليس من الجائز أن خدع سليمان لا يتنبهون إلى القيام بواجباته المعيشية من مأكل ومشرب وملبس ونحوها يوما كاملا دون أن يحدثوه فى ذلك ويطلبوا إليه القيام بخدمته ، فالعقول أن الأرضة بدأت العصا وسليمان لم يتنبه لذلك ، وبينما

هو متوكلٌ عليها حانت منيته ، وكانت الأرض قد فعلت فعلها في العصا فانكسرت
نخرت على الأرض فعلت الجن كذبها ، إذ كانت تدعى أنها تعلم الغيب ، إذ لو علمته
مالبثت ترهق نفسها في شاق الأعمال التي كلفت بها .

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُّوا مِنْ
رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ
وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهُمْ
لَمْ يُجَازِ إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) .

شرح المفردات

سبأ : هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ؛ والمراد به هنا القبيلة ، والمسكن :
موضع السكنى وهو مأرب (كمنزل) من بلاد اليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة
أيام ، آية : أى علامة دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته على إيجاد الغرائب
والعجائب ، جنتان : أى بستانان ، فأعرضوا : أى انصرفوا عن شكر هذه النعم ،
والعرم : واحدها عرمة ؛ وهى الحجارة المركومة كخزان أسوان فى وادى النيل لحجز
المياه جنوبى النيل ، وكانت له ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، والمطر يجتمع أمام
ذلك السد ، فيسقون من الباب الأعلى ثم الذى يليه ثم من الأسفل ، والأكل :
الثمر ، والخط : كل شجرة مرة ذات شوك ، والأثل : الطرفاء ؛ وهو المعروف فى مصر
(بالأثل) والسدر : شجر النبق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جل وعلا حال الشاكرين لنعمته المنيبين إليه - أعقب ذلك بذكر ما حل بالكافرين بنعمه ، المعرضين عن ذكره وشكره من عظيم العقاب ، موعظة لقریش وتحذيرا لمن يكفر بالنعم ويعرض عن المنعم .

الإيضاح

(لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) أى لقد كان أهل هذا الحى من ملوك اليمن في نعمة عظيمة وسعة في الرزق ، وكانت لهم حدائق غناء وبساتين فيحاء عن يمين الوادى وشماله ، وقد أرسل الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزق ربهم ويشكروه بتوحيده وعبادته كفاء ما أنعم عليهم بهذه المنن ، وأحسن إليهم بتلك النعم ، فكانوا كذلك إلى حين ، ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل عليهم فتفرقوا في البلاد شذر مذر ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم جنتين ذواتى أكل حط وأثل وشىء من سدر قليل) أى فأعرضوا عن طاعة ربهم وصدوا عن اتباع ما دعاهم إليه الرسل فأرسل الله عليهم سيلا كثيرا مالا الوادى وكسر السد وخر به وذهب بالجنان والبساتين وأهلك الحرث والنسل ، ولم يبق منهم إلا شراذم قليلة تفرقت في البلاد ، وبدلوا من تلك الجنان والبساتين التى سبق وصفها بساتين ليس فيها إلا بعض أشجار لا يؤبه بها كالخط والأثل وقليل من النبق . ثم بين سبب ذلك العقاب بقوله :

(ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور) أى وجازيناهم ذلك الجزاء القطيع من جرأ كفرهم بربهم وجحودهم بنعمه ، وتكذيبهم بالحق ، وعدوهم

عنه إلى الباطل ، وما تجازى مثل هذا الجزاء الشديد المستأصل إلا عظيم الكفران
للنعم ، الجحود للفضل والمنن .

سد مأرب — سد العرم

وصف هذا السد مؤرخو العرب في عصور مختلفة . وأصدق من أجاد وصفه
الهمداني في كتابه (وصف جزيرة العرب) قال : في الجنوب الغربي من مأرب
سلسلة جبال هي شعاب من جبل السراة الشهير ، تمتد مئات الأميال نحو الشرق
الشمالى ، وبين هذه الجبال أودية تصب في واد كبير يعبر عنه العرب بالميزاب الشرقى
وهو أعظم أودية الشرق ، وشعاب هذه المواضع وأوديتها إذا أمطرت السماء تجمعت
فيها السيول وانحدرت حتى تنتهى أخيرا إلى وادى أذنة ، وهو يعلو سطح البحر
بنحو ١١٠٠ متر ، وتسير فيه المياه نحو الشرق الشمالى حتى تنتهى إلى مكان قبل
مأرب بثلاث ساعات ، هو مضيق بين جبلين يقال لكل منهما بلن ، أحدهما بلن الأيمن
وثانيهما بلن الأيسر والمسافة بينهما ستمائة ذراع يحرف السيل الأكبر بينهما من
الغرب الجنوبى إلى الشرق الشمالى في وادى أذنة .

وقد اختار السبئيون المضيق بين جبلى بلن وبنوا في عرضه سورا عظيما عرف
بسد مأرب أو بسد العرم ، لأنه لا أنهار عندهم ، وإنما يستقى أهلها من السيول التى
تتجمع من المطر ، وقد كان يذهب أكثرها في الرمال ، فإذا انقضى فصل المطر ظمئوا
وجفت أغراسهم ، وربما فاض المطر فسطا على المدن والقرى ففألهم منه أذى كثير .
وبين المضيق ومدينة مأرب متسع من الأرض تبلغ مساحة ما يحيط به من
الأرض من سفوح وجبال نحو ٣٠٠ ميل مربع كانت صحراء جرداء قاحلة فأصبحت
بعد تدبير المياه بالسد غياضا وبتاتين على سفحى الجبلين وهى المعبر عنها بالجفتين
الجنة اليمنى والجنة اليسرى اهـ يتصرف .

وقد ظل الباحثون والمنقبون في العصر الحديث في شك من أمر هذا السد حتى

تمكن المستعرب الفرنسي أرنو من الوصول إلى مأرب سنة ١٨٤٣ وشاهد آثاره ورسم له مصورا نشر في المجلة الفرنسية سنة ١٨٧٤ وزار مأرب بعده هاليفي وغلازل ووافقه فيما قال وصادقاه فيما وصف وهو يطابق من وجوه كثيرة ما قاله الهمداني في كتابه ثم عثروا فيما بعد على نقوش كتابية في خرائب السد وغيرها تحقّقوا بها صدق خبره .

قال الأصفهاني : إن السد تهدم قبل الإسلام بنحو أربع مائة سنة ، وقال ياقوت : إنه هدم في نحو القرن السادس للميلاد ، وقال ابن خلدون : إنه تهدم في القرن الخامس للميلاد .

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ الْوَيْلَ الْقَرَىٰ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ، سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) .

شرح المفردات

القرى التي بارك فيها : هي قرى الشام ، قرى ظاهرة : أي مرتفعة على الآكام وهي أصح القرى ، وقدرنا فيها السير : أي كانت القرى على مقادير للراحل ، فمن سار من قرية صباحا وصل إلى أخرى حين الظهيرة ، ومن سار من بعد الظهر وصل إلى أخرى حين الغروب ، فلا يحتاج إلى حمل زاد ولا مبيت في أرض خالية ولا يخاف من عدو ولا سبع ، آمنين : أي من كل ما تكرهون ، وظلموا أنفسهم لأنهم بطروا النعمة ، والأحاديث : واحدها أحدوثة وهي ما يتحدث به على سبيل التلهي والاستغراب ، ومزقناهم كل ممزق : أي وفرقناهم كل تغريق ، الصبار : كثير الصبر

عن الشهوات ودواعى الهوى وعلى مشاق الطاعات ، والشكور : أى كثير الشكران على النعم .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه ما أوتوا من النعم فى مساكنهم ثم كفرانهم بها وما جوزوا به من الخراب والدمار - قص علينا ما أعطوه من النعم فى مسايرهم ومتاجرهم ، ثم جحودهم بها ثم ما حاق بهم بسبب ذلك .

الإيضاح

(وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة) أى وجعلنا بين قراهم وقرى الشام التى باركنا فيها بالتوسعة على أهلها قرى متواصلة يظهر بعضها لبعض ، لأنها مبنية على آكام عالية .

(وقدربنا فيها السير) أى وجعلنا بين بعضها وبعض مقادير متناسبة بحيث يئيل الغادى فى قرية ، ويبيت الراح فى أخرى إلى أن يصل إلى الشام وهو لا يحمل معه زادا ولا ماء .

(سيروا فيها لىالى وأياما آمنين) أى وقلنا لهم سيروا فى هذه القرى التى بين قراكم وقرى الشام التى باركنا فيها لىالى وأياما وأنتم آمنون لا تخشون جوعا ولا عطشا ولا عدوا يبطش بكم ، بل تغدون فتيقلون ، وتروحون فتبتتون فى قرية ذات جنان ونهر .

وخلاصة هذا - إنهم كانوا فى نعمة وغبطة وعيش هنىء رغد فى بلاد مرضية وأما كن آمنة وقرى متواصلة ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ؛ فالمسافر لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمر ، فهو يقيل فى قرية ويبيت فى أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه فى سيرهم .

ثم ذكر أنهم بطروا وملّوا تلك النعم وآثروا الذي هو أدنى على الذي هو خير كما فعل بنو إسرائيل فطلبوا أن يُفصل بين القرى بمفاوز وقفار، ليظهر القادرون منهم الأزواد والرواحل تكبرا وخفا على العاجزين كما حكى سبحانه عنهم بقوله :

(فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) فاجعل بيننا وبين الشام فلولات ومفاوز، لتركب فيها الرواحل ، وتزود معنا فيها الأزواد ، فأجاب الله طلبهم وعاقبهم على بطرهم بالنعمة كما قال :

(وظالموا أنفسهم) إذ قد عرضوها للسخط والعذاب بغمط النعمة وعدم الوفاء بشكرها .

ثم ذكر عاقبة أمرهم فقال :

(فجعلناهم أحاديث ومرفقاهم كل ممزق) أي جعلناهم أحاديث للناس يتسامرون بها ويعتبرون بأمرهم، وكيف مكر الله بهم وفرّق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيئ وصاروا مضرب الأمثال فليل للقوم يتفرقون ؟ تفرقوا أيدي سبا ، فنزل آكل جفنة ابن عمرو الشام ، ونزل الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت أزْد السّرة السّرة ، ونزلت أزْد عمان عُماناً ثم أرسل الله على السد السيل فهدمه .

(إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) أي إن في ذلك الذي حل بهؤلاء من النعمة والعذاب بعد النعمة والعافية عقوبة لهم على ما اجتروا من الآثام - لعلهم لعل عبد صبار على المصائب ، شكور على النعم .

روى سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر ، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر ، يؤجر المؤمن في كل شيء حتى اللقمة يرفعها إلى في امرأته » . وكان مُطَرِّف بن الشَّخِير يقول : نعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر .

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠)
وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ
مِنْهَا فِي شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ (٢١) .

شرح المفردات

صدق عليهم إبليس ظنه : أى وجد ظنه فيهم صادقاً ، لانهما كهم في الشهوات
واستفراغ الجهد في اللذات ، سلطان : أى تسلط واستغواء بالسوسة ، حفيظ : أى
وكيل قائم على شئون خلقه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلّت قدرته قصص سبأ ، وما كان من أمرهم في اتباع الهوى
والشيطان - أردف ذلك بالإخبار بأنهم صدقوا ظن إبليس فيهم وفي أمثالهم ممن
ركنوا إلى الغواية والضلال ، إذ تسلط عليهم وانقادوا إلى وسوسته ، وبذا امتازوا
من فريق المؤمنين الذين لاسلطان للشيطان عليهم كما قال سبحانه : « إِنَّ عِبَادِي
لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » .

الإيضاح

(ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) أى ولقد ظن
إبليس بهؤلاء الذين بدلناهم بحجبتهم جنتين ذوائى أكل خط عقوبة مناهم - ظناً
غير يقين أنهم يتبعونه ويطيعونه في معصية الله ، وحين أغواهم وأطاعوه وعصوا
ربهم تحقق صدق ظنه فيهم ، إلا فريقاً من المؤمنين ثبتوا على طاعة الله
ومعصية إبليس .

ثم ذكر أنه ابتلاه يظهر حال المؤمنين من حال الشاكين في الآخرة فقال :

(وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك) أى وما كان لإبليس على هؤلاء القوم من حجة يضلهم بها ، ولنا كنا أردنا ابتلاءهم واختبارهم ليظهر حال من يؤمن بالآخرة ويصدق بالثواب والعقاب ممن هو منها فى شك ، فلا يوقن بمعاد ، ولا يصدق بثواب ولا عقاب .

قال الحسن البصرى : والله ماضر بهم بعضا ، ولا أكرههم على شيء ، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه .

وخلاصة ذلك : لاسطان لإبليس على قلوب الناس ، ولكنى أسلطه عليهم كما أسلط الذباب على العيون القذرة ، والأوبئة على البلاد التى لم يراع أهلها شروط النظافة فى مساكنهم وملابسهم وماكلهم ، ولا أفعل ذلك إلا لحكمة ، فإذا حل الوباء بأرض مات من لاقدرة له على مقاومة جراثيم الأمراض وبقى من هو قادر على المقاومة ولديه قوة المناعة ، وهكذا وسوسة الشيطان يفرق الله بها بين الثابت العقيدة والمتزلز لها ، ومن انقاد لها فلا يؤمن إلا نفسه وهو المذنب وحده ، وهكذا جميع حوادث الدنيا من مصائب وآلام تثبت لها ذو العزيمة الصادقة ، ولا يضطرب حين حلولها إلا الضعيف الذى ليس له جلد ولا صبر .

(وربك على كل شيء حفيظ) أى وربك أيها الرسول حفيظ على أعمال هؤلاء الكفار وغيرهم ، لا يعزب عن علمه شيء ، وهو يجازيهم جميعا يوم القيامة بما كسبوا فى الدنيا من خير أو شر ، فمن أحببت الله وأناب إليه لاقى من الثواب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ومن دسّ نفسه الأمانة بالسوء وانهمك فى شهواته لاقى من سوء الجزاء كفاء أعماله نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى .

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ

ظهير (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)

شرح المفردات

ادعوا : أى نادوا ، زعمتم : أى زعمتموهم آلهة ، من شرك : أى شركة ، والظهير : المعين ، واليفزع : إزالة الفزع ؛ وهو انقباض ونفار يعترى الإنسان من الشيء الخفيف .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزت قدرته ما آتاه الشاكرين من أوليائه كداود وسليمان من النعم التي لا حصر لها ، وما فعله بسبأ حين بطروا النعمة وكذبوا الرسل - أعقب ذلك بأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين من قومه تهكما بهم وتعجبا من حالهم : ادعوا آلهتكم الذين زعمتموهم شركاء لله ، فساوهم أن يفعلوا بكم بعض أفعالنا بمن وصفنا أمرهم من إنعام أو انتقام ، فإن لم يستطيعوا ذلك فاعلموا أنهم مبطون .

ثم ذكر أن شأن المعبود أن يكون نافعا للعابد يخشى بطشه وسطوته ، وهؤلاء ليس لهم شيء من ذلك ، إذ لا تصرف لهم في شيء في السموات والأرض لا استقلالا ولا شركة ، ولا هم معينون للخالق فيهما ، ولا تنفع شفاعتهم لديه ، فكيف تقربون إليهم وتعبدونهم رجاء نفعهم بعد الذى علمتم من أمرهم .

الإيضاح

(قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك موبخا لهم ومبيننا لهم سوء ما يصنعون : ادعوا هؤلاء الأصنام في مهام أموركم ليدفعوا الضر عنكم أو يجلبوا النفع لكم ، لعلمهم يستجيبون لكم إن كان ذلك في مكنتهم ويبدون مقاليد أموركم .

ثم أبان لهم عظيم خطيئهم وكبير جرمهم فقال :
(لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) أى هؤلاء الآلهة
لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض من خير أو شر ، فكيف
يكونون آلهة يرجى معهم نفع أو يخشى منهم ضرر .

ونحو الآية قوله : « وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ » .
(وما لهم فيهما من شرك) أى ولا هم يملكون مثقال ذرة فيهما على سبيل
الشركة ، والمراد أنهم لا يملكون شيئاً لاعلى سبيل الاستقلال ولا على سبيل
الشركة للخالق لها .

(وما له منهم من ظهير) أى وما لله من الآلهة التى يدعون من دونه - معين على
خلق شيء من ذلك ، ولا على حفظه .

(ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) أى ولا تنفعهم شفاعتهم عنده تعالى ،
إذ لا شفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع ، وهو لا يأذن أحداً أن يشفع لهؤلاء
الكافرين كما قال تعالى : « لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً » .
والشفاعة لمثل هؤلاء لا تكون أبداً .

ثم ذكر ما يحدث بعد انتظار الإذن بالشفاعة فقال :

(حتى إذا فرغ من قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق) أى يقف الناس
منتظرين الإذن بالشفاعة وجلين حتى إذا أذن للشافعين وأزيل الفرع عن قلوب
المنتظرين قال بعضهم لبعض ماذا قال ربكم فى الإذن بالشفاعة ؟ قالوا قال ربنا القول
الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى .

والآيات تدل على أن المشفوع لهم هم المؤمنون ، والكافرون بمعزل عن موقف
الاستشفاع .

والخلاصة - إن الشفاعة لا تنفع فى حال إلا لشافع أذن له فيها من النبيين

والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة، ثم ذكر اعتراف الشفعاء بعظمة خالق السكون وقصور كل ما سواه فقال :

(وهو العلى الكبير) أى وهو جل شأنه المتفرد بالعلو والكبرياء لا يشاركه فى ذلك أحد من خلقه ، وليس لأحد منهم أن يتكلم إلا من بعد إذنه .

وفى هذا تواضع منهم بعد أن رفع سبحانه أقدارهم بالإذن لهم بالشفاعة ، وفيه أيضا ثناء على الله كما لا يخفى .

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ، وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ
أَعْلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ
عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ
الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِى الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ، كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) .

شرح المفردات

أجرمنا : أى وقعنا فى الجرم ، وهو الذنب ، ويفتح : أى يحكم ، والفتاح : الحاكم ،
أرونى الذين ألحقتم به شركاء : أى أعلمونى بالدلائل وجه الشراكة ، كلاً : كلمة للزجر عن
كلام أو فعل صدر من المخاطب .

المعنى الجملى

بعد أن سلب سبحانه عن شركائهم ملك شىء من الأكوان ، وأثبت أن ذلك
له وحده - أمر نبيه أن يجعلهم يقولون بتفردة بالخلق والرزق وانفراده بالإلهية ،
وأن يخبر بأن أحد الفريقين الموحدين للرازق والمشركين به الجماد - مبطل والآخر

حق ، وقد قام الدليل على التوحيد فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك ، وأن يقول لهم : لا تؤاخذون بما نعمل ولا تؤاخذ بما تعملون ، وأن يقول لهم : إن ربنا هو الذي يحكم بيننا يوم القيامة وهو الحكيم العليم بجلال الأمور ودقائقها ، وأن يقول لهم : أعلموني عما ألحقتم به من الشركاء ، هل يخافون وهل يرزقون ؟ كلا بل الله هو الخالق الرازق الغالب على أمره ، الحكيم في كل ما يفعل .

الإيضاح

(قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين ربهم الأوثان والأصنام : من يرزقكم من السموات يا ترال النيث عليكم ، حياة لحروثكم وصلاحا لمعايشكم ، وتسخير الشمس والقمر والنجوم لمنافعكم - ومن الأرض بإخراج أقواتكم وأقوات أنعامكم ؟ فإن هم قالوا لاندري فأجبهم :

(قل الله) هو الذي يرزقكم ، إذ لأجواب عندهم سواء في قرارة أنفسهم ، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به عنادا مع علمهم بصحته ، ولأنهم لو تفوهوا به لقليل لهم : فما لكم لاتعبدون من يرزقكم وتوثرون عليه من لا يقدر على الرزق ؟ كما قال سبحانه تبيكيتا لهم : « قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ؟ » .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم بعد الإلزام الذي ليس بأقل من الاعتراف بأنفسهم . (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) أى وإن أحد الفريقين منا معشر الذين يوحدون الرازق لمن فى السموات والأرض ويفردونه بالعبادة ، والذين يشركون به الجماد العاجز عن دفع الضر وجلب النفع - لعلى الهدى أو فى الضلال البين الذى لا شك فيه .

وهذا أسلوب من الكلام النصف تستعمله العرب في محاوراتها لإرخاء العنان للمخاطب حتى إذا سمعه الموافق أو المخالف قال لمن خاطب به لقد أنصفك صاحبك : ألا ترى الرجل يقول لصاحبه : قد علم الله الصادق مني ومنك ، وإن أخذنا لكاذب ، وعليه قول حسان يخاطب أبا سفيان بن حرب وكان قد هاجم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم :

أتهجوه ولست له بكف فشر كما نطير كما الفداء

وفي ذكر هذا بعد ما تقدمه من الخجج الظاهرة على التوحيد ، دلالة واضحة على تمييز المهتدي من الضال ، والإيماء بأبلغ من التصريح وأوصل بالمجادل إلى الغرض مع قلة شغب الخصم وفل شوكتة بالهوي .

ثم زاد في إنصافهم في الخاصة ، فأستند الإجماع إلى أنفسهم والعمل للمخاطبين فقال :

(قل لا تسألون عما أجرمتنا ولا تسأل عما تعملون) أى قل لهؤلاء المشركين : أنتم لا تسألون عما اكتسبنا من الآثام وارتكبنا من الذنوب ، ونحن لا نسأل عما تعملون من عمل - خيرا كان أو شرا .

وتحوى الآية قوله : « فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » .

ثم حذرهم وأذعرهم عاقبة أمرهم إذ أمر رسوله أن يقول لهم :

(قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم) أى قل لهم : إن ربنا يوم القيامة يجمع بيننا حين الحشر والحساب ثم يقضى بيننا بالعدل بعد ظهور حال كل منا ومنكم ، وهو الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور ، وهنالك يجزى كل عامل بما عمل ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وستعملون يومئذ بين العزة والنصرة والسيادة الأبدية كما قال : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ » .

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ .

ثم استفسر عن شبهتهم بعد إلزامهم الحجة تبكيثا لهم فقال :

(قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء) أى قل لهم : ما الذى عراكم ودخل
فى أذهانكم من الشبه حتى جعلتم هؤلاء أندادا لله وشركاء ، وبأى صفة ألحقتموهم به
فى استحقاق العبادة ؟

ثم نبه إلى فاحش غلطهم وعظيم خطيئهم بقوله :

(كلا ، بل هو الله العزيز الحكيم) أى ليس الأمر كما وصفتم ، فلا نظيره تعالى
ولا ند ، بل هو الله الواحد الأحد ذو العزة التى بها قهر كل شئ ، وهو الحكيم
فى أفعاله وأقواله ، وفيما شرع لهم من الدين الحق الذى يسعد من اعتنقه فى حياته
الأولى والآخرة .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٩)
قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على التوحيد وضرب لذلك الأمثال حتى لم يبق بعدها زيادة
لمستزيد - شرع يذكر الرسالة ويبين أنها عامة للناس جميعا ، ولكن أكثر الناس
لا يعلمون فيجعلهم ذلك على مخالفتك ، ثم ذكر سؤال منكبرى البعث عن الساعة
استهزاء بها ، ثم أعقب ذلك بالتهديد والوعيد لما يكون لهم فيها من شديد الأهوال .

الإيضاح

(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) أى وما أرسلناك إلى قومك خاصة ، بل أرسلناك إلى الخلق جميعا عربهم وعجمهم أسودهم وأحمرهم ، مبشرا من أطاعنى بالثواب العظيم ، ومنذرا من عصانى بالعذاب الأليم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » وقوله : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيحماهم جهلهم على الإصرار على ما هم فيه من الفى والضلال .

ونحو الآية قوله : « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » وقوله : « وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويقولون استهزاء لفرط تعنتهم وجهلهم : متى هذا الذى توعدوننا به مبشرين ومنذرين إن كنتم أيها الرسول والمؤمنين صادقين فيما تقولون .

ونحو الآية قوله : « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ » .

ثم أمر رسوله أن يجيبهم عن سؤالهم فقال :

(قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) أى قل لهم أيها الرسول إن لكم ميعاد يوم هو آتاكم لا محالة ، لا تستأخرون عنه ساعة إذا جاء فتنظروا للثوبة والإنابة ولا تستقدمون قبله للعذاب ، لأن الله جعل لكم أجلا لا تعدونه .

والخلاصة — دعوا السؤال عن وقت مجيء الساعة ، فإنه كائن لا محالة ، وسلوا عن أحوال أنفسكم حين تكونون مبهوتين متحيرين من هول ما تشاهدون فهذا أليق بكم .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ،
وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَمْرُنَا لَكُنَّا
مُؤْمِنِينَ (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ
عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ
وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ، وَأَسْرُوا الدَّامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ
فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)

المعنى الجملي

لما ذكر الأصول الثلاثة وهي التوحيد والرسالة والحشر وكانوا كافرين بها جميعا -
ذكر شأن جماعة من المشركين جاهدوا بإنكار القرآن وبكل كتاب سبقه من الكتب
السمائية السالفة، ويستتبع ذلك أنهم لا يؤمنون بما جاء فيها من البعث والحشر والحساب
والجزاء، ثم ذكر ما سيكون من الحوار بين الضالين ومضليهم من الكفار وما يسرونه
من الحسرة والدائمة حين يرون العذاب، ثم أعقبه بذكر ما سيحقق بهم من الإهانة
بوضع الأغلال في الأعناق، وأن هذا جزاء لهم على ما عملوا من سيئ الأعمال،
وما دسّوا به أنفسهم من قبيح الخلال.

الإيضاح

(وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه) أي وقال
مشركو العرب: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب التي سبقته، ولا بما اشتملت

عليه من أمور الغيب التي تتصل بالآخرة من بعث وحساب وجزاء .
 روى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن وصف الرسول صلى الله عليه وسلم
 فأخبروهم أنهم يجدون صفته في كتبهم فأغضبهم ذلك وقالوا ما قالوا :
 ثم ذكر ما يكون من حوار بين ضالهم ومضليهم حين الوقوف بين يدي الملك
 الديان للحساب والجزاء فقال :

(ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول)
 أى ولو ترى أيها الرسول حال أولئك الكافرين وما هم فيه من مهانة وذلة ، يحاور
 بعضهم بعضا ويتلاومون على ما كان بينهم من سوء الأعمال والسبب فيمن أوقعهم
 في هذا النكال والوبال - رأيت العجب العاجب والمنظر الحزى الذى يستكين منه
 المرء خجلا .

ثم فصل ذلك الحوار فقال :

(يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أتم لكننا مؤمنين) أى يقول
 الأتباع للذين استكبروا فى الدنيا واستتبعوهم فى النى والضلال ، لولا أتم أيها السادة
 صدقتمونا عن الهدى لكننا مؤمنين بما جاء به الرسول .
 ثم حكى سبحانه رد الرؤساء عليهم بقوله :

(قال الذين استكبروا للذين استضعفوا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟
 بل كنتم مجرمين) أى قال الذين استكبروا فى الدنيا وصاروا رؤساء فى الكفر
 والضلالة للذين استضعفوا فكانوا أتباعا لأهل الضلال منهم : أنحن منعناكم من
 اتباع الحق بعد أن جاءكم من عند الله ؟ بل أتم منعتم أنفسكم حظها بإجرامكم
 وإيثاركم الكفر على الإيمان .

والخلاصة - إننا لم نحل بينكم وبين الإيمان لو صممتم على الدخول فيه ،
 بل كنتم مجرمين ، فمنعكم إيثاركم الكفر على الإيمان من اتباع الهدى .
 ثم حكى رد المستضعفين على قول المستكبرين بقوله :

(وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) أى وقال الأتباع للرؤساء فى الضلال : صدنا مكركم بنا وخداكم فى الليل والنهار حين كنتم تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أمثالا وأشباها فى العبادة. وإجمال ذلك — ما صدنا إلا مكركم أيها الرؤساء بالليل والنهار حتى أزلتمونا عن عبادة الله ، فأنتم كنتم تغفروننا وتمنونا وتخبرونا أننا على الهدى وأنا على شيء ، كل ذلك باطل وكذب .

ثم ذكر ما ل أمرهم وسوء عاقبتهم فقال :

(وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) أى وأضمر كل من الفريقين المستكبرين والمستضعفين — الندم على ما فرط منهم فى الدنيا حين رأوا العذاب ، إذ هم بهتوا مما عاينوا فلم يستطيعوا أن ينطقوا ببنت شفة .

والخلاصة — إنهم ندموا على ما فرطوا من طاعة الله فى الدنيا حين شاهدوا عذابه الذى أعده لهم .

(وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا) أى وجعلنا أغلال الحديد فى أعناق هؤلاء فى النار .

ثم ذكر أنه لاجزاء لأمثالهم إلا هذا فقال :

(هل يحزون إلا ما كانوا يعملون) أى وما يفعل ذلك بهم إلا جزاء لما اجترحوا من الكفر والآثام « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » وقد قالوا فى أمثالهم : إنك لا تجنى من الشوك العنب .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا
 ذُرِّيٌّ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ
 فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْمَعُونَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ
 فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 وَيَقْدِرُ لَهُ ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قول المشركين لرسوله إن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه
 بعد أن طال به الأمد في دعوتهم حتى لحقه من ذلك الغم الكثير كما قال : « فَأَعْلَاكَ
 بِأَخِيعَ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » - سلاه مما ابتلى
 به من مخالفة مترقى قومه له وعداوتهم إياه أمرا له بالتأسى بمن قبله من الرسل ، فإنه
 ليس بدعا من بينهم ، فما من نبي بعث في قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤها
 كما قال : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ كَاذِبٍ مُجْرِمِينَ لِيَمْلِكُوا فِيهَا »
 ثم ذكر حجبتهم بأنهم لا حاجة لهم إلى الإيمان به ، فها هم فيه من مال وولد برهان
 ساطع على محبة الله إياهم ، فرد عليهم بأن بسط الرزق وتمتيره كما يكون للبر يكون
 للفاجر ، لأن ذلك مرتبط بسنن طبيعية وأسباب قدرها سبحانه في هذه الحياة ، فمن
 أحسن استعمالها استفاد منها ؛ ثم ذكر أن المتقين يتمتعون إذ ذاك بغرف الجنان وهم
 في أمن وودعة ، وأن الذين يصدون عن سبيل الله في نار جهنم يصلونها أبدا ، ثم
 وعد المنفقين في سبيل الله بالإخلاف ، وأوعد المسكين بالإتلاف .

الإيضاح

(وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) أى
 وما بعثنا إلى أهل قرية نذيرا يذرمهم بأسنا أن ينزل عليهم على معصيتهم إيانا إلا قال

كبراًؤها وأولو النعمة والثروة فيها : إنا لانؤمن بما بعثتم به من التوحيد والبراءة من
الآلهة والأنداد .

وليس في ذلك من عجب ، فإن المنعمسين في الشهوات يحملهم التكبر والتفاخر
بزينة الحياة الدنيا على النفور من الكمال الروحي ، ومن تثقيف النفوس بالإيمان
والحكمة ، فالضدان لا يجتمعان : انغماس في الشهوة وعلم وحكمة ، ثروة مادية
وثررة روحية .

ثم ذكر تفاخرهم بما هم فيه من بسطة العيش ، وكثرة الولد وأن ذلك سيكون
سبب نجاتهم من العذاب في الآخرة بقوله :

(وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين) أى وقال المستكبرون
في كل قرية أرسلنا فيها نذيراً : إنا ذوو عدد عديد من الأولاد وكثرة في الأموال
فنحن لا نعذب ، لأن ذلك دليل على محبة الله لنا ، وعنايته بنا ، وأنه ما كان ليعطينا
ما أعطانا ثم يعذبنا في الآخرة .

هيهات هيهات ، إنهم قد ضلوا ضلالاً بعيداً ، وأخطأوا القياس « أَيَحْسَبُونَ
أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ » .

وخلاصة آرائهم — نحن في نعمة لانشوبها نقمة ، وذلك دليل على كرامتنا
عند الله ورضاء عنا ، إذ لو كان ما نحن فيه من الشرك وغيره مما تدعوننا إلى تركه
— مخالفاً لما يرضيه — لما كنا فيما نحن فيه من نعمة وبسطة في العيش وكثرة الأولاد .
فرد الله عليهم مقاتلهم أمراً رسوله أن يبين لهم خطاهم بقوله :

(قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى قل لهم أيها الرسول : إن
ربي يبسط الرزق من معاش ورياش في الدنيا لمن يشاء من خلقه ويضيق على من
يشاء ، لا لحبة فيمن بسط له ذلك ، ولا خيرة فيه ولا زلفى استحق بها ذلك ،
ولا لبغض منه لمن قدر عليه ولا لملق منه له ، ولكنه يفعل ذلك لسنن وضعها

اكتسب المال فى هذه الحياة ، فمن سلك سبيلها وصل إلى ما يبتغى . ومن أخطأها
 وضل لم يفل شيئا من حظوظها ؛ ولا رابطة بين الثراء ومحبة الله ، ألا ترى أنه ربما
 وسع سبحانه على العاصى وضيق على المطيع ، وربما عكس الأمر ، وقد يوسع على
 المطيع أو العاصى تارة ويضيق عليهما أخرى - يفعل كل ذلك على حسب ما اقتضته
 مشيئته المبنية على الحكم البالغة التى قد نعلمها وربما خفى علينا أمرها ، ولو كان البسط
 دليلا للإكرام والرضا لاختص به المطيع ، ولو كان التضيق دليل الإهانة لاختص به
 العاصى ، ومن ثم جاء قوله صلى الله عليه وسلم « لو كانت الدنيا ترز عند الله جناح
 بعوضة ما أعطى الكافر منها شيئا » .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الله يفعل ذلك على حسب السنن التى
 وضعها فى الكون ، بل يظنون أن ذلك لمحبة منه لمن بسط له ، ومقت منه لمن قُدر
 عليه ، حتى تحير بعضهم واعترض على الله فى البسط لأناس والتضييق منه على آخرين
 ومن ثم قال :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
 هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

ثم بين سبحانه لعباده أن الزلقى عنده ليست بكثرة المال والولد ، بل بالتقوى
 وصالح العمل ، فقال :

(وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقر بكم عندنا زلقى إلا من آمن وعمل صالحا
 فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون) أى وما أموالكم التى
 تفتخرون بها على الناس ، ولا أولادكم الذين تتكبرون بهم بالتى تقر بكم منا ، لكن
 من آمن وعمل صالحا فإيمانهم وعملهم يقر بانهم منى ، وأولئك أضعاف لهم ثواب
 أعمالهم فأجازيهم بالحسنة عشر أمثالها أو أكثر إلى سبعائة ضعف ، وهم فى غرفات
 الجنات آمنون من كل خوف وأذى ومن كل شر يحذر منه .

روى عن على كرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن في الجنة لغرفا ترى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ، فقال أعرابي لمن هي ؟ قال : لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام . »

ثم بين حال المسيء الذي يبعده ماله وولده من الله فقال :

(والذين يسعون في آياتنا معاجزين فأولئك في العذاب محضرون) أى والذين يصدون عن آيات كتابنا بالطعن فيها يبتغون إبطالها ، ويريدون إطفاء أنوارها ظانين أنهم يفوتونها وأتوا لن نقدر عليهم ، فأولئك في عذاب جهنم يوم القيامة تحضرهم الزبانية إليها ولا يجدون عنها محيصا ، ولا يجديهم نفعا ما عولوا عليه من شفاعاة الأصنام والأوثان .

ثم زهد عباده في الدنيا وحضهم على التقرب إليه بالإتفاق فقال :

(قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) أى قل لهم أيها الرسول : إن ربي يوسع الرزق على من يشاء من عباده حينما يضيقه عليه حينما آخر ، فلا تحشوا الفقر وأنفقوا في سبيل الله وتقرّبوا إليه بأموالكم لتنالكم نعمة من رحمته .

(وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) أى وما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم ويعوضكم بدلا منه في الدنيا مالا وفي الآخرة بالثواب الذي كل خلف دونه ، وفي الحديث : « أنفق بلالا ، ولا تحش من ذى العرش إقلا لا » .

وعن مجاهد أنه خصه بالآخرة إذ قال : إذا كان لأحدكم شيء فليقتصد ولا يتأول هذه الآية : « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » فإن الرزق مقسوم ، ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه .

(وهو خير الرازقين) في رزقه من حيث لا يحتسب ولا رازق غيره .

روى الشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان يتزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » .

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ الْمَلَأْتُكَ : أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن حال النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه ليس بدعا بين الرسل ، فخاله معهم كحال من تقدمهم منهم مع أقوامهم ، فكلمهم كذبوا وكلمهم أودوا في سبيل الله ؛ ثم أعقب ذلك بأن رد عليهم بأن كثرة الأموال والأولاد لاصلة لها بمحبة الله ، ولا سخطه - أردف ذلك بما يكون من حالهم يوم القيامة من التفرع والتأنيب بسؤال الملائكة أمامهم : هل هؤلاء كانوا يعبدونكم ؟ فيجيبون بأنهم كانوا يعبدون الشياطين بوسوستهم إليهم ، ثم بين أنهم في ذلك اليوم لا يقع لهم نفع من كانوا يرجون من الأوثان والأصنام ، ويقال لهم على طريق التوبيخ والتهكم : ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون .

الإيضاح

(ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟)
أي واذكر أيها الرسول لقومك : يوم نحشر العابدين منهم والمعبودين المستكبرين منهم والمستضعفين ، ثم نسأل الملائكة : أأنتم أمرتهم هؤلاء بعبادتكم ؟

وهذا سؤال وجه إلى الملائكة ظاهرا ، والمراد منه تفرع المشركين وتنبئهم عما علقوا عليه أطماعهم من شفاعتهم لهم ، فهو وارد على نهج قولهم : إياك أعنى واسمعى بإجاره ،

وعلى نهج قوله تعالى لعيسى « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّتِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ؟ » .

وقد علم سبحانه أن الملائكة وعيسى برآء مما وجه إليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير ، ولكن جاء ليقول ويقولوا ، ويسأل ويحيبوا ، فيكون توبيخهم أشد ، وتعييرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم .

(قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم) أى قالت الملائكة : تعاليت ربنا وتقدست عن أن يكون معك إله ، نحن عبيدك نبرأ إليك من هؤلاء وأنت الذى نواله دونهم ، فلا موالاة بيننا وبينهم .

والخلاصة — إننا براء من عبادتهم والرضا بهم .

ثم بين أنهم ما عبدوهم على الحقيقة بقوله :

(بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) أى بل هم كانوا يعبدون الشياطين ، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم ، وأكثر المشركين مؤمنون بالجن مصدقون لهم فيما يقولون ، إذ كانوا يعبدون غير الله بوسوستهم ويستغيثون بهم فى قضاء حاجتهم كما هو مشهور لدى أرباب العزائم والسحرة .

ونحو الآية قوله : « إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا . لَعَنَهُ اللَّهُ » .

ولما أبطل تمسكهم بهم بعد تقر يعيهم وتأنيبهم زادهم أسى وحسرة فقال :

(فالיום لا يملك بعضهم لبعض نفعا ولا ضرا) أى فالיום لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه من الأوثان والأنثاد الذين ادخرتم عبادتهم لشدائدكم وكرو بكم ، لأن الأمر فى ذلك اليوم لله الواحد القهار ، لا يملك أحد فيه منفعة لأحد ولا مضرة له .

(ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) أى ونقول للمشركين زجرا لهم وتأنيبا : ذوقوا عذاب النار التى كنتم تكذبون بها فى دنياكم ،

فها أنتم أولاء قد وردتموها وسمعتهم شهيقها وزفيرها ، وليس الخُبر كالخُبر ، ولا السماع كالعاينة ، فعضوا بنان الندم أسي وحسرة على ما قدمتم في دنياكم ، فجنيت صابه وعلقمه في آخركم .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا مِجْرَثٌ مَبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَى وُفِّرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِذْ رَّبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَاقِمَ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ، وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المشركين هم أهل النار يوم القيامة وأنه يذوقون عذابها الذي كنتم به تكذبون - أعقب ذلك بذكر ما لأجله استحقوا هذا العذاب

وهو صدمهم عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم في القرآن : إنه إفك مفترى ، وإنه سحر واضح لاشك فيه ، وقد كان فيما حلّ بالأمم قبلهم مزدجر لهم لو أرادوا ، فقد بلغوا من القوة ما بلغوا ، وحين أرسل إليهم الرسل كذبوهم فأخذوا أخذ عزيز مقتدر ، ثم أنذرهم سوء عاقبة ما هم فيه وأوصاهم بأن يشمروا لطلب الحق متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا ثم يتفكروا ليعلموا أن صاحبهم ليس بالجنون ، بل هو نذير لهم يخوفهم بأس الله وعذابه الشديد يوم القيامة وقد كان لهم من حاله ما يرغبهم في دعوته ، فهو لا يطلب منهم أجرا ولا يريد منهم جزاء ، وإنما مثوبته عند ربه المطاع على كل شيء ؛ ثم أبان لهم أن الحق قد وضح وجاءت أعلام الشريعة كنفلق الصبح نورا وضياء ولا بقاء للباطل ولا قرار له إذا ظهر نور الحق « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

الإيضاح

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) أى وإذا تتلى آيات الكتاب الكريم على المشركين دالة على التوحيد وبطلان الشرك ، قالوا إن هذا الرجل يريد أن يلفتكم عن الدين الحق دين الآباء والأجداد ، ليجعلكم من أتباعه دون أن يكون له حجة على ما يدعى ، وبرهان يدل على صحة ما يسلك من سبيل .

ثم زادوا إنكارهم توكيدا وأياسوه من الطمع في إيمانهم .

(وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى) أى وقالوا إن القرآن الذى يدعى محمد أنه وحى من عند ربه - كذب مختلق من عنده ، وقد نسبته إلى ربه ترويجا للدعوة واجتلابا لقلوب الكافة .

ثم شدد ما فى الإنكار فجعلوه سحرا بيننا لاشك فيه عندهم كما حكى عنهم بقوله : (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) أى وقال المشركون

لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من عنده مشتملا على الهدى والشرائع التي وجهتهم في حياتهم الاجتماعية ونظم المعيشة وجهة جديدة تكون بها سعادتهم في معاشهم ومعادهم وغيّرت الطريق التي ورثوها عن الآباء والأجداد — ما هذا إلا سحر بين لا خفاء فيه عندنا ، وقد أعمى أبصارنا وأضل أحلامنا فلم نستطع أن ندفعه بكل سبيل ، ولا يزال يابح القلوب ويقتحمها ويدخل النفوس ويستحوذ عليها ، ونحن في حيرة من أمره لا نجد طريقا للتغلب عليه بالوسائل التي نعرفها وهي بين أيدينا .
والخلاصة — إنهم نفوا أن يكون وحياً من عنده وجعلوه إما كلاما مفترى جاء به لترويج دعوته ، وإما سحرا فله ليخْلُب به العقول ويصد الناس عن الدين الحق الذي ورثوه عن الآباء والأجداد .

فرد الله سبحانه عليهم منكرا دعواهم أن دينهم هو الدين الحق بقوله :
(وما آتيناكم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) أى إن الدين الصحيح إنما يأتي بوحي من عند الله وبكتاب ينزل على الرسول ليبلغه للناس ويبين لهم فيه ما جاء به من الشرائع والآداب والفضائل التي تكون بها سعادتهم في دنياهم وآخرتهم ، وهم أمة أمية لم يأتهم كتاب قبل القرآن ، ولم يبعث إليهم رسول قبل محمد ، فمن أين أتاهم أن الدين الحق هو الذي يرشد إلى حجة الإشراف بالله ، وينفى توحيد الخالق حتى يكون لهم معذرة فيما يدعون ، وحجة على حجة ما يعتقدون ؟ .

ولا يخفى ما في هذا من التهم بهم والتجهيل لهم :
ونحو الآية قوله : « أَمْ أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَنْتَكِبُونَ مَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ » وقوله : « أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ » .
وبعد أن بشر وأنذر وأبان بالحجة والبرهان ما كان فيه المقنع لهم لو كانوا يعقلون ، سلك بهم سبيل التهديد والوعيد وضرب لهم المثل بالأمم التي كانت قبلهم وسلك سبيلهم ولم يُجِدْها الآيات والنذر ، فخل بها بأس الله وأناها العذاب من حيث لا تحتسب فقال :

(وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير) أى ولقد كان لهم فيمن قبلهم من الأمم البائدة والقرون الخالية كقوم نوح وعاد وثمود ، وقد بلغوا من القوة والبأس ما لم يبلغوا معشاره ، فكذبوا رسلي حين أرسلوا إليهم فخل بهم النكال والوبال ودُمِّروا تدميرا ، ولم تكن عندهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وإنهم ليسوا بشاهدين آثارهم في حلهم وترحالهم في غدوهم ورواحهم كما قال في آية أخرى : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْعِجِينَ . وَبِاللَّيْلِ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ » فليحذرُوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك .

والخلاصة — إن فيما سَلَ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْمَثَلَاتِ نَكَالًا لَهُمْ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ — لَعِبْرَةٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ .

ثم أطلَّ لهم الحبل ومدَّ لهم الباع وأنصفهم في الخصومة فقال :

(قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا) أى قل لهم : إنى أرشدكم أيها القوم وأنصح لكم ألا تبادروا بالكذب عنادا واستكبارا ، بل اتشدوا وتذكروا مليا فيما دعوتكم إليه وجدِّوا واجتهدوا فى طلب الحق خالصا ، إما واحدا فواحدا ، وإما اثنين اثنين لعلكم تصلون إلى الحق وتهتدون إلى قصد السبيل وتكونون قد أنصفتكم الحقيقة وأمطم الحجب التى غشت أبصاركم ورائت على قلوبكم فلم تيمهل الحق ينفذ فيها .

وإنما طلب إليهم التفكير وهم متفرقون اثنين اثنين أو واحدا فواحدا ، لأن فى الازدحام تهوِش الخاطر والمنع من إطالة التفكير وتخليط الكلام وقلة الإنصاف ، وفيما يشاهد كل يوم من الاضطراب وتبليبل الأفكار فى الجماعات الكثيرة حين الجدل والخصومة ما يؤيد صدق هذا .

ثم أبان لهم أن نتيجة الفكر ستؤدى بهم إلى أن يعترفوا بما يرشد إليه النظر الصحيح .

(ما بصاحبكم من جنة) إذ ما جاء به من ذلك الأمر العظيم الذى فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم لا يتصدى لدعائه إلا أحد رجلين : إما مجنون لا يبالي باقتضاه حين مطالبته بالبرهان وظهور معجزه ، وإما نبي مؤيد من عند الله بالمعجزات الدالة على صدقه .

وإنكم قد علمتم أن محمدا أرجح الناس عقلا ، وأصدق الناس قولا ، وأزكاهم نفسا ، وأجمعهم للكمال النفسى والعقلى ؛ فوجب عليكم أن تصدقوه فى دعوته ، وقد قرنها بالمعجزات الدالة على ذلك .

وفى التعبير بصاحبكم إيماء إلى أنه معروف لهم مشهور لديهم ، فهو قد نشأ بين ظهرانيهم وعلموا ماله من صفات الفضل والنبل وكرم الخلال مما لم يتهأ لأحد من أنترابه ولداته .

وإذ قد استبان بالدليل أنه ليس بالمجنون فى كل مايقول ويدعى ، اتضح أنه صادق كما قال :

(إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) أى ما هذا الرسول بالكاذب ، بل هو نذير لكم بعقاب الله حين تقدمون عليه ، لكفركم به وعصيانكم أمره . وإيماء جعل إنذاره بين يدي العذاب ، لأن محمدا مبعوث قرب الساعة كما جاء فى الحديث « بعثت أنا والساعة جميعا إن كادت لتسبقنى » .

وروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « سعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم فقال : يا صباحاه ، فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : مالك ؟ فقال : رأيتم لو أخبرتم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقونى ؟ قالوا بلى ، قال صلى الله عليه وسلم : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبأ لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله عز وجل : تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » .

ولما نفى عن رسوله الجنون وأثبت له النبوة : ذكر وجها آخر يؤكد

ذلك فقال :

(قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله ، وهو على كل شيء شهيد) أى قل لهم : إني لا أريد منكم أجرا ولا عطاء على أداء رسالة ربى إليكم ونصحى لكم وأمرى بعبادته ، إنما أطلب ثواب ذلك من الله ، وهو العليم بجميع الأشياء ، فيعلم صدق وخلص نيتى .

وإذا علم أن الذى حمله على ركوب الصعاب واقتحام الأخطار ليس أمرا دينويا ، ثبت أن الذى حفره إلى ذلك هو أمر الله تعالى له وقد صدع به « فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » وبهذا ثبت أنه نبي .

ولما استبان أنه ليس بالجنون ولا هو بطالب الدنيا - علم أن الذى جاء به هبط إليه من السماء وقذفه الوحي إليه ، وقد أمر أن يبلغه إليهم كما أشار إلى ذلك بقوله :

(قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب) القذف الرمي بدفع شديد: أى قل لمن أنكر التوحيد ورسالة الأنبياء والبعث : إن ربى يلقى الوحي وينزله على قلب من يجتنبه من عباده ، وهو العليم بمن يصطفاهم كما قال سبحانه : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » وقال : « يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » .

وقد يكون المعنى كما روى عن ابن عباس : إن ربى يقذف الباطل بالحق ؛ أى يورده عليه حتى يبطله ويزيل آثاره ويشيع الحق فى الآفاق .

ولا يخفى مافى هذا من عدة بإظهار الإسلام ونشره بين الناس وتبليج نوره فى الكون ، ونحوه « بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ » .

ثم أكد ما سلف بأمره صلى الله عليه وسلم أن يخبر قومه بأن الإسلام سيعلو على سائر الأديان وأن غيره سيضمحل ويزول فقال :

(قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد) أى قل جاء الإسلام ورفعت رايته وعلا ذكره ، وذهب الباطل فلم تبق منه بقية تبدى شيئا أو تعيده .

وأصله في هلاك الحى فإنه إذا هلك لم يبق له إبداء أى فعل أمر ابتداء، ولا إعادة
أى فعله ثانياً، وأنشدوا لعبيد بن الأبرص :

أقفر من أهله عبيد فالיום لا يُبدى ولا يُعيدُ

روى البخارى ومسلم « أنه لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام
يوم الفتح ووجد الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعن الصنم منها بسية قوسه
ويقول : وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا - قُلْ جَاءَ الْحَقُّ
وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ » .

ولما سد عليهم مسالك القول ، لم يبق إلا أن يقولوا عنادا : إنه قد عرض له
ما أصله عن محجة الصواب ، فأمر رسوله أن يقول لهم :

(قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربي إنه
سميع قريب) أى قل أيها الرسول لقومك : إن ضللت عن الهدى وسلكت غير
طريق الحق فإنما ضللت ذلك على نفسى ، وإن استقيمت على الحق فبوحى الله إلى
وتوفيقه للاستقامة على محجة الحق وطريق الهدى ، إنه سميع لما أقول وتقولون ،
ويجازى كلما يستحق ، قريب محبب دعوة الداعى إذا دعاه .

روى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى قال : « إنكم لاتدعون أصم ولا غائبا
إنما تدعون سميعا قريبا مجيبا » .

وإخلاصة — إن الخير كله من الله وفيما أنزله على من الوحي والحق المبين .

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١)
وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُوسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ
مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤)

شرح المفردات

الفرع : انقباض ونفار من الأمر المهول الخيف ، التناوش : التناول السهل لشيء قريب ؛ يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذ برأسه ولحيته ، ناشه : ينوشه نوشاً ، وأنشدوا لغيلان بن حُرَيْث في وصف الإبل :

فهي تنوش الحوض نَوْشاً من علا نوشاً به تقطع أجواز القلا
يريد أنها عالية الأجسام طويلة الأعناق ، يقذفون بالغيب : أى يرجحون بالظنون التى لا علم لهم بها ، والعرب تقول لكل من تكلم بما لا يستيقنه : هو يقذف بالغيب .
بأشياءهم : أى أشباههم ونظرائهم فى الكفر جمع شيع وشيع جمع شيعة ؛ وشيعة الرجل : أتباعه وأنصاره ، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيع ، مريب : أى موقع فى الريبة والظنة ، يقال أراب الرجل : أى صار ذا ريبة فهو مريب .

المعنى الجملى

بعد أن أبطل سبحانه شبههم ورد عليهم بما لم يبق بعده مستزاد مستزيد - هددهم بشديد العقاب إن هم أصروا على عنادهم واستكبارهم ، ثم ذكر أنهم حين معاينة العذاب يقولون آمنا بالرسول ، وأنى لهم ذلك وقد فات الأوان ؟ وقد كان ذلك فى مَكِنَّتِهِمْ فى دار الدنيا لو أرادوا ، أما الآن فإن ذلك لا يجديهم فتية ولا قطميرا من جرأ ما كانوا فيه من شك مريب فى الحياة الأولى ، وتلك سنة الله فى أشباههم من قبل .

الإيضاح

(ولو ترى إذ فرغوا فلا فوت) أى ولو رأيت أيها الرسول هؤلاء المكذبين حين يفزعون مما رأوا من العذاب الشديد - لرأيت من الأمر ما يعجز القول عن وصفه ، فهم لا يتمكنون من الهرب ، ولا يفوتهم ذلك العذاب ولا يجدون ملجأ ولا مأوى يبتعدون فيه .

(وأخذوا من مكان قريب) أى وأخذوا حين الفزع من الموقف إلى النار ولم
يتمكنوا أن يمعنوا في الهرب .

(وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) أى وقالوا حينئذ : آمنا
بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وأنى لهم ذلك وقد صاروا بعيدين عن قبول الإيمان ؟
إذ هذه الدار ليست أهلا لقبول التكليف من الإيمان بالله والعمل الصالح .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » .

(وقد كفروا به من قبل) أى وكيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة وقد كفروا
بالحق فى الدنيا وكذبوا الرسل ؟ .

(ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) أى وهم قد كانوا يرجون بظنون لامستند
لهم فيها ، فيتكلمون فى الرسول بمطاعن ليس لها ما يؤيدها ، فتارة يقولون إنه شاعر ،
وأخرى إنه كاهن ، وثالثة إنه ساحر ، إلى نحو ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون
بالبعث والنشور والحساب والجزاء .

(وحيل بينهم وبين ما يشتهون) أى وحيل بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا
ليعملوا صالحا كما قال : « فَلَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَعَنَا بِمَا كُنَّا
بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بُاسَنَا » .

ثم بين أن هذه سنة الله فى أمثالهم ممن كذبوا الرسل من قبلهم فقال :
(كما فعل بأشياءهم من قبل) أى فعلنا بهم كما فعلنا بالأمم الماضية التى كذبت
رسلها فتمنوا حين رأوا بأس الله أن لو آمنوا ولكن لم يقبل منهم .

ثم علل عدم قبول إيمانهم ووصولهم إلى بغيتهم حينئذ بقوله :
(إنهم كانوا فى شك مريب) أى لأنهم كانوا فى الدار الأولى شاكين فيما
أخبرت به الرسل من البعث والجزاء ، وقد تغافل الشك فى قلوبهم حتى صاروا
لا يطمئنون إلى شىء مما جاءوا به .

ما اشتملت عليه السورة الكريمة من حكم وأحكام

- (١) حمد الله والثناء عليه بما هو أهله .
- (٢) مقال المشركين في إنكار البعث والرد عليهم بأنه آتٍ لا شك فيه .
- (٣) الاستهزاء بالرسول وحكمهم عليه بأنه إما مفتر وإما مجنون .
- (٤) النعم التي آتاها سبحانه داود وسليمان عليهما السلام .
- (٥) ما كان لسبأ من النعم ثم زوالها لكفرانهم بها واتباعهم وسوسة الشيطان .
- (٦) الذم على المشركين لعبادتهم الأوثان والأصنام مع بيان أنها لا تفيدهم يوم القيامة شيئاً .
- (٧) الحجاج والجدل بين الأتباع والمتبوعين من الكافرين يوم القيامة وإلقاء كل منهما التبعة على الآخر .
- (٨) بيان أن المترفين في كل أمة هم أعداء الرسل، لا عزازيمهم بأموالهم وأولادهم، واعتقادهم أنهم ما آتاهم ربهم ذلك إلا لرضاه عنهم ثم رده سبحانه عليهم .
- (٩) سؤال الملائكة أمام المشركين بأنهم هل طلبوا منهم عبادتهم ؟ ليكون في ردهم ما يكفي في تهكيتهم .
- (١٠) مقال المشركين عند سماع القرآن وادعائهم أنه ليس بوحى من عند الله بل الداعى مفتر ليصد الناس عن دين الآباء والأجداد .
- (١١) عظمتهم بما حل بمن قبلهم من الأمم .
- (١٢) أمرهم بالتأمل والتدبر في الأدلة التي أمامهم لعلهم يرجعون عن غيهم .
- (١٣) إثبات أن الرسول نذير مبين ، لا مفتر ولا مجنون .
- (١٤) الرسول لا يطلب أجراً على دعوته ، بل أجره على الله .
- (١٥) طلب المشركين يوم القيامة أن يرجعوا إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسول ويعملوا صالح الأعمال ، ثم الرد عليهم بأن ذلك قد فات أوانه وأن لا سبيل إلى تحقيقه .

سورة فاطر — سورة الملائكة

هى مكية نزلت بعد سورة الفرقان وآيها خمس وأربعون .
ومناسبتها لما قبلها :

إنه لما ذكر سبحانه فى آخر سابقتها هلاك المشركين وإنزالهم منازل العذاب —
لزم المؤمنين حمده تعالى وشكره كما جاء فى قوله : « فَقَطِّعْ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى
أَجْنَحَةٍ مِّثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ (١) .

شرح المفردات

فطر الشيء : أوجده على غير مثال سابق ، رسلا : أى وسائط بينه وبين أنبيائه
يبلغون عنه رسالاته ، مثنى وثلاث ورباع : أى اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة .

الإيضاح

(الحمد لله فاطر السموات والأرض) أى له سبحانه الشكر فقد أبدع خلق
السموات والأرض وما بينهما على غير مثال سابق وأحكم تدبيرهما على أتم نظام ،
كما قيل : ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

(جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) أى جاعل الملائكة
وسائط بينه وبين أنبيائه يبلغون إليهم رسالاته — ذوى أجنحة إما اثنين اثنين ، وإما
ثلاثة ثلاثة ، وإما أربعة أربعة .

والأجنحة في العالم المادى تساعد على الطيران ، وكثرتها تومئ إلى السرعة ، وهي في عالم الأرواح ترشد إلى القدرة على السرعة في تنفيذ أوامر الله وتبليغ رسالات ربه إلى أنبيائه .

وفي هذا إيماء إلى أن الملائكة تتفاوت أقدارهم وقواهم عند الله تعالى على حسب استعدادهم الروحي . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود « أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح » وفي هذا رمز إلى قوة استعداده الروحي وقربه من الملا الأعلى وسرعة تنفيذه ما يؤمر به .

(يزيد في الخلق ما يشاء) أى يزيد في خلق الأجنحة ما يشاء، كما يزيد في أرجل الحيوان ما يشاء حتى لقد تبلغ فوق العشرين أحياناً ، وهكذا يزيد في تفاوت العقول والنفوس والقوى المادية والمعنوية كما قيل .

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنا

(إن الله على كل شيء قدير) فيزيد كل ما هو أهل للزيادة وما هو مستعد لها، حسية كانت أو معنوية ، فلا يمتنع عليه فعل شيء أراد ، لما له من القدرة والسلطان على كل شيء .

مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)

شرح المفردات

يفتح : يعطى ، ورحمة : أى نعمة حسية كانت أو معنوية كرزق وصحة وأمن وعلم وحكمة ، إلى نحو ذلك مما لا يحاط به .

المعنى الجملى

بعد أن وصف سبحانه نفسه بالقدرة الكاملة والإرادة النافذة - أيد ذلك بما يشاهده كل أحد في نفسه من الضيق حيناً والسعة حيناً آخر ، مع العجز عن دفع البؤس إن وجد ، وجلب النعمة لو أراد .

الإيضاح

مفاتيح الخير ومغاليقه كلها بيده سبحانه ، فما يعطى من خير فلا يستطيع أحد منعه ولا إمساكه ، وأى خير يمسكه فلا يبسطه ولا يفتح له فأتاح ، لأن الأمور كلها بيده ، ومنه البذل والعطاء ، والمنع والإمساك .

وهو الغالب على كل ما يشاء من الأمور التى منها الفتح والإمساك ، وهو الحكيم الذى يفعل كل ما يفعل على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

وفى الآية عظة للناس بالإقبال إلى ربهم والتوجه إليه فى قضاء حاجهم والتوكل عليه فى جميع مآربهم ، والإعراض عما سواه من جميع خلقه .

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ » .

روى أحمد عن المغيرة بن شعبه أنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا انصرف من الصلاة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض وملء ما شئت من شيء بعد ، اللهم أهل الثناء والمجد ،

أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد : اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

وأخرج ابن المنذر عن عامر بن عبد قيس قال : أربع آيات من كتاب الله إذا قرأتها ما أبالي ما أصبح عليه وأمسى : (١) ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده . (٢) وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله . (٣) سيجعل الله بعد عسر يسرا . (٤) وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِذْ كُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآتَى تُؤَفَّكُونَ (٣) .

شرح المفردات

أتى تؤفكون : أى من أين تصرفون عن توحيد الخالق مع الاعتراف بأنه وحده هو الرازق ، وتشركون المنحوت : بمن له الملكوت .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنه وحده هو المنعم بما يشاهده كل أحد في نفسه - أمر بذكر نعمه بالاعتراف بها والشكر عليها .

الإيضاح

أيها الناس راعوا نعم الله واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها ، وخصوا خالقها بالعبادة والطاعة فهو الذى بيده أرزاقكم وأقواتكم ، فإلى أى وجه تصرفون عنه بعد أن استبان الحق ، ووضح السبيل .

والخلاصة — احفظوا نعم الله وأدوا حقها ولا تشركوا به سواه من الأصنام والأوثان ، بعد وضوح الدليل وسطوع البرهان .

وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا
إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأصل الأول وهو التوحيد — ثنى يذكر الأصل الثانى وهو الرسالة
وسلى رسوله عن تكذيب قومه له بأنه ليس ببدع بين الرسل فقد كذب كثير منهم
قبله ، فعليه أن يتأسى بهم ويصبر على أذاهم ؛ ثم ذكر الأصل الثالث وهو البعث
والنشور مع بيان أنه حق لا شك فيه ، وأنه لا ينبغي أن يقبلوا فيه وساوس الشيطان
فإنه عدو لبنى آدم ولا يرشدهم إلا إلى الذنوب والآثام التى توصلهم إلى عذاب النار
وبئس القرار .

الإيضاح

(وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) أى وإن
استمر قومك على تكذيبك فيما بلغته إليهم من الحق المبين ، بعد أن أقمت لهم الحجج
وضربت الأمثال ، فتأس بمن سبقك من الرسل فقد صبروا على ما أؤذوا حتى أتاها
نصرنا ولا مبدل لكلمات الله .

وإلى الله مرجع أمرك وأمرهم فيجازيك وإياهم على الصبر والتكذيب .
ثم ذكر أن البعث آت لا ريب فيه فقال :

(يَأْمُرُ النَّاسَ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ)
 أى إن وعد الله بالحشر والجزاء حق لا شك فيه ، فلا تغرَّنكم الحياة الدنيا فيذهلكم
 التمتع بمتاعها ، ويهيكلم التلهى بزخارفها عن تدارك ما ينفعكم يوم حلول الميعاد اتباعا
 لوساوس الشيطان .

والخلاصة — إنكم لا تغتروا بالحياة الدنيا وتتركوا فعل ما أمرتم به وتفعلوا
 ما نهيتكم عنه .

ثم ذكر العلة فى عدم الاغترار بالشيطان فقال :

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) أى إن الشيطان معطن عداوته لكم
 بسوسسته ، فعادوه أتم أشد العداوة وخالفوه وكذبوه فيما يفرمكم به .

ثم ذكر أعماله ودعوته أتباعه إلى الغواية والضلالة فقال :

(إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) أى ما غرضه من دعوة شيعة إلى
 اتباع الهوى والركون إلى لذات الدنيا إلا إضلالهم وإلحاقهم فى العذاب الدائم من
 حيث لا يشعرون .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
 مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ
 مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ
 عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)

شرح المفردات

الحسرات : واحدها حسرة ، وهى الغم على ما فات والندم عليه .

المعنى الجملى

بعد أن أبان أن الشيطان يضل أتباعه ويدعوهم إلى النار - ذكر هنا أن حزب الشيطان له العذاب الشديد ، وأن حزب الله له المغفرة والأجر الكبير ، ثم بين أن الضلال والهداية بيد الله على حسب ما يعلم من الاستعداد وصفاء النفوس وقبول الهداية ، أو تدسيتها وارتكابها الإجرام والمعاصي ، فلا تحزن على ما ترى من ضلال قومك واتباعهم لوساوس الشيطان ، والله عليم بحالهم وسيجازيهم بما يستحقون .
أخرج جويبير عن الضحاك أن الآية نزلت في عمر رضى الله عنه وأبى جهل حيث هدى الله عمر وأضل أبا جهل .

الإيضاح

(الذين كفروا لهم عذاب شديد) أى الذين كفروا بالله ورسوله لهم عذاب من الله شديد فى النار، من جِراء كفرهم وإجابتهم دعوة الشيطان واتباعهم خطواته .
(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) أى والذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم به وانتهوا عما نهاهم عنه - لهم مغفرة من الله لذنوبهم وأجر كبير كفاء ما ملئوا به قلوبهم من عامر الإيمان ، وأخبتوا إلى ربهم بصلاح الأعمال .
ثم بين البعد ما بين الفريقين واختلاف حال الثمتين فقال :

(أمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) أى أمن حسن له الشيطان سىء الأعمال من معاصى الله والكفر به وعبادة ما دونه من الآلهة والأوثان ، فحسب سىء ذلك حسنا ، وظن قبيحه جميلا ، ألك فيه حيلة ؟

ثم ذكر السبب فى اتجاه كل من الفريقين إلى ما اتجه إليه فقال :

(فإن الله يضل من يشاء ويهذى من يشاء) أى فإن ذلك الإضلال بمشيئة الله تعالى التابعة لعلمه باستعداد النفوس للخير والشر ، وقد تقدم ذلك غير مرة فلا حاجة إلى الإطناب فيه .

ثم أتى بما هو كالنتيجة لما سلف فقال :

(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) أى فلا تأسف على عدم إيمانهم وإجابتهم دعوتك ، فإن الله حكيم فى قدره ، فهو يضل من يضل من عباده ويهتدى من يشاء ، لما له فى ذلك من الحجة البالغة والعلم التام باستعداد النفوس إما بإخبارها إلى ربها وإنابتها إليه وميلها إلى صالح العمل ، وإما بتدسيستها وحبها لاجترار السيئات وارتكاب الموبقات ، ونحو الآية قوله : «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْخَلْقِ نَاسِفًا» .

ثم هدد الكافرين على قبيح أعمالهم فقال :

(إن الله عليم بما يصنعون) أى إن الله عليم بما يصنعون من القبائح فيجازيهم عليه بما يستحقون ، وفى هذا وعيد تنهد منه الجبال وتندك منه الأرض دكا .

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَلِكَ الذُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُنْوَرُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) .

شرح المفردات

أرسل : أى أطلق وأوجد من العدم ، تثير : أى تحرك ، مَيِّتٌ وَمَيِّتٌ بمعنى قاله محمد بن يزيد وأنشد :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
 إنما الميت من يعيش كثيراً كاسفاً باله قليل الرجاء
 ويرى بعضهم أن الميت بالتخفيف هو الذى مات، والميت بالتشديد، والمات هو
 الذى لم يميت بعد وأنشد :

ومن يك ذا روح فذلك ميت وما الميت إلا من إلى القبر يحمل
 والمراد أنه لا نبات فيه ، والنشور : إحياء الأموات يقال نشر الله الميت
 وأنشره ، أى أحياه ، العزة : أى الشرف والمنعة من قولهم أرض عزاز : أى صلبة ،
 والكلم الطيب : هو التوحيد أو الذكر أو قراءة القرآن ، وصعوده إلى الله قبوله ،
 والعمل الصالح هو ما كان بإخلاص ، يرفعه : أى يقبله ، يذكرون : أى يعملون على
 وجه المسكر والخدعة ، والسيئات : المسكرات السيئات كأن يراءوا المؤمنين فى أعمالهم
 يوهمونهم أنهم فى طاعة الله ، يبور : أى يفسد من البوار وهو الهلاك ، أزواجاً : أى
 أصنافاً ذكرانا وإناثاً ، يعمر من معمر : أى يمد فى عمر أحد ، فى كتاب : أى
 فى صحيفة المرء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أن الكافرين لهم عذاب شديد يوم القيامة ، وأن الذين
 يعملون الصالحات لهم أجر كبير عند ربهم فى ذلك اليوم - أردف ذلك ببيان أن هذا
 اليوم لا ريب فيه ، وضرب المثل الذى يدل على تحققه لاحتمال ، ثم ذكر أن من يريد
 العزة فليطع الله ورسوله ولا يتعزز بعبادة الأصنام والأوثان كما أخبر الله عنهم «وَاتَّخَذُوا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا» وأن العمل الطيب يرفع إلى الله ويحفظ
 لديه ويجازى عليه ؛ ثم أعقب ذلك بأن من يترك بالمؤمنين ويريد خداعهم فالله
 يفسد عليه تدبيره ويجازيه بما عمل شر الجزاء ، وبعد أن ذكر دليل البعث بما يشاهد
 فى الآفاق من دلائل القدرة ، ذكر دليلاً عليه بما يرى فى الأنفس من اختلاف

أطوارها ، فقد كانت ترابا ثم نطفة ثم وضعت فى الأرحام إلى أن صارت بشرا سويا ، ومنها ما يمد فى عمرها ، ومنها ما يُحْتَرَم قبل ذلك ، كما تدل عليه المشاهدة ، وكل ذلك يسير على الله .

الإيضاح

(والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحييناه به الأرض بعد موتها كذلك النشور) أى أفلا تتدبرون وتعقلون فتعلموا أن من أوجد الرياح بعد أن لم تكن ثم جعلها تسير السحاب الثقال فتنزله منها الغيث إلى الأرض الجُرُز التى لا نبات بها فتحيا بعد أن كانت ميتة وتهتز وتربو وتنبت كل زوج بهيج - أفليس ذلك القادر الحكيم الذى أحيا ميت الأرض بقادر على أن يحيى الموتى بعد بلاها ، وبعد أن كانت عظاما نخرة ؟ إنه على كل شىء قدير .

وعن أبى رزين قال : « قلت يا رسول الله كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال صلى الله عليه وسلم يا أبا رزين أما مررت بوادى قومك ثمجلا ، ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قلت بلى ، قال صلى الله عليه وسلم فكذلك يحيى الله الموتى . (من كان يريد العزة فله العزة جميعا) أى من كان يود أن يكون عزيزا فى الدنيا والآخرة فليلتزم طاعة الله تعالى ، فإن بها تنال العزة إذ الله العزة فيهما جميعا .

(إليه يصعد الكلم الطيب) أى إنه سبحانه يقبل طيب الكلام كالتموحيذ والذكر وقراءة القرآن ، ومن الذكر : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . (والعمل الصالح يرفعه) صلاح العمل بالإخلاص فيه ، وما كان كذلك قبله الله وأثاب عليه ، وما لا إخلاص فيه فلا ثواب عليه بل عليه العقاب ، فالصلاة والزكاة وأعمال البر إذا فعلت مراعاة للناس لا ليقبها الله كما قال سبحانه « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » .. وروى عن ابن عباس أنه قال : الكلام الطيب ذكر الله ، والعمل الصالح : أداء

فرائضه . وعن الحسن وقتادة : لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ، من قال وأحسن قبل الله منه .

والخلاصة — إن القول إذا لم يصحبه عمل لا يقبل ، وأنشدوا :

لا ترض من رجل حلاوة قوله حتى يُزَيِّن ما يقولُ فعَال

وإذا وزنتَ فعَاله بمقَاله فتوازننا فإخاءُ ذاك جمال

وقال ابن المُقَفَّع : قول بلا عمل كثير يد بلا دسم ، وسحاب بلا مطر ، وقوس بلا وتر .

وبعد أن ذكر أن العمل الصالح يصعد إلى الله ، ذكر أن المرائين لا يتقبل منهم عمل ، ولهم عذاب شديد عند ربهم .

(والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد) أى والذين يمكرون المسكر السيئ بالمسلمين بأن يعملوا كل ما يكون سبباً في ضعف الإسلام والخط من قدره والإفساد بين بينهم حتى يمتحى أثره من الوجود كما فعلت قریش في دار الندوة ، إذ تدارست الرأى في شأن النبي صلى الله عليه وسلم بحبسه أو قتله أو إجلائه من مكة لهم العذاب الشديد يوم القيامة .

(ومكر أولئك هو يبور) أى ومكر هؤلاء المفسدين يظهر زيفه عن قريب لأولى البصائر ، فإنه ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلمات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فالمرأى لا يروج أمره ولا يستمر إلا على غيب ، أما المؤمنون المتفردون فلا يروج ذلك عليهم ، بل ينكشف عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية . ثم ذكر دليلاً على صحة البعث بما يرى في الأنفس فقال :

(والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً) أى والله خلق الناس من النطفة ، والنطفة من الغذاء ، والغذاء ينتهي آخرها إلى الماء والتراب ، فهم من تراب صار نطفة ، ثم جعلهم أصنافاً ذكراناً وإناثاً بقدر معلوم بحيث يكاد الفريقان يستويان عدداً ، ولو لم يكن كذلك لفنى الإنسان والحيوان ، إذ حفظ النوع لا يتم

إلا بتلك المساواة على وجه التقريب ، ولا تكون المساواة إلا بتدبير وعلم ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) أى ولا تحمل الأنثى ولا تضع إلا وهو عليم بذلك لا يخفى عليه ، ولولم يكن كذلك وكانت المصادفة العمياء هى صاحبة السلطان فى هذا العالم ، لم يتم التوازن فى العدد بين الزوجين فيفنى الإنسان والحيوان . ونحو الآية قوله : « اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ » . (وما يعمّر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) أى لا أحد يقضى له بطول العمر إلا وهو بالغ ما قدر له ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص عنه ، ولا أحد مقدر له قصر العمر بزائد على ما قدر له فى الكتاب الذى كتب له ، وذلك لحفظ الموازين فى الأرض حتى ينتظم العمران ، ولولم يكن على هذا النحو لاختلط الحابل بالنابل وساء حال الكون ، إذ يكثر الناس وتردحم الأرض ويشتد الكرب ، ومن ثم تفاوتت الأعمار فى جميع الأمصار وكانت بمقدار ، واعتدل النظام بالمرض والموت والوباء والحرب .

(إن ذلك على الله يسير) أى إن ذلك النظام البديع للعالم - هين على الله لعلمه الشامل ، وعدم خفاء شيء عليه .

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ: هَذَا عَذَبٌ فِرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ، وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَاكَ فِيهِ مَوَازِيرَ اتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا

يَجْرَى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ
دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ
وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ
وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) .

شرح المفردات

عَذْبُ : أى حلوى لذيق طعمه ، فَرَات : أى كاسر للعطش مزيل له ، سَائِغ : أى
سهل انحداره نخلوه مما تعافه النفس ، أَجَاج : أى شديد الملوحة والحرارة ، حَلِيَّة :
أى لؤلؤا ومرجانا ، مَوَاطِر : أى شاقات الماء حين جريانها ، يُولِج : أى يدخل ،
وَالْقِطْمِير : لغافة النواة ، وهى القشرة البيضاء الرقيقة التى تكون بين القشرة والنواة ،
يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ : أى يمحذون بإشراككم إياهم وعبادتكم لهم ، وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ
خَبِيرٍ : أى ولا يخبرك بالأمر مخبر مثل الخبير به .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على إثبات البعث وضرب المثل لذلك بإحياء الأرض الميتة
بعد إنزال الغيث عليها - أردف هذا ذكر البراهين المختلفة على وحدانيته وعظيم
قدرته بخلقه الأشياء المتحدة فى الجنس المختلفة فى المنافع ، فهذا ماء عذب زلال يجرى
فى الأقاليم والأمصار ، والبرارى والقفار ، يُسْقَى مِنْهُ الْإِنْسَانُ وَالْحَيَوَانُ وَيَنْبِت
النبات الذى فيه غذاء لهما ، وهذا ماء مالح أجاج تسير فيه السفن السكبار ويستخرج
منه اللؤلؤ والمرجان ، ومن كل منهما نأكل لهما طريا فيه لذة للأكليين ، وهذان
ليل ونهار ، ضياء وظلام ، يدخل أحدهما فى الآخر فيأخذ هذا من طول ذاك ، ويزيد
هذا فى قصر ذاك فيعتدلان ، ثم يتقارضان صيفا وشتاء ، وسخر الشمس والقمر والنجوم

الثواب والسيارات ، كل يجرى بمقدار معين وعلى نهج ثابت لا يتغير ، كل ذلك بتقدير العزيز العليم .

أما ما تدعون من دونه من الأصنام والأوثان فلا يملكون شروى نقيروا ولا يسمعون لكم دعاء ، ولا يستجيبون لدعوة ، ويوم القيامة يتبرءون منكم إذا دعوتهم واستشفعتم بهم ، ولا ينبئك بهذا إلا الخبير وهو ربك العليم بما كان وما سيكون .

الإيضاح

(وما يستوى البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) أى وما يعتدل البحرين فيستويان : أحدهما عذب سائغ شرابه يجرى فى الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار على حسب الحاجة إليها فى الأقاليم والأمصار . وثانيهما ملح ساكن تسير فيه السفن الكبار .

(ومن كل تأكلون لحا طريا) أى ومن كل البحار تأكلون السمك الغض الطرى فضلا من الله ومنه .

(وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) أى وتستخرجون الدرّ والمرجان من الملح الأجاج ومن العذب الفرات ، وتجرى السفن فى كل منها تشقها شقا بحيازيمها حين جريها مقبلة مدبرة حاملة أقواتكم من بلد إلى آخر فتدفع عنكم المخمصة وتسدّ العوز .

لعلكم تشكرونه سبحانه على تسخيرها لكم ، تتصرفون فيها كيف شئتم ، وتذهبون فيها إن أردتم .

ولما كان بين الفلك فى البحر والشمس والقمر فى مدارهما مناسبة ، فإن كلا منهما سارح فى تلك العوالم الشاسعة - أردفه ذكر الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر فقال :

(يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى يدخل الليل فى النهار فيكون

النهار أطول من الليل ساعة فأكثر ، ويدخل النهار في الليل فيكون الليل أطول من النهار كذلك .

(وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) أى وأجرى لكم الشمس والقمر نعمة منه عليكم ورحمة بكم ، لتعلموا عدد السنين والحساب ، ولتسكنوا في الليل وتبتغوا فضلا منه في النهار ولا يزالان يجريان هكذا لأجل معلوم لا يقصران دونه ولا يتعديانه ، وهو يوم القيامة .

(ذاكم الله ربكم له الملك) أى ذاكم الذى يفعل هذه الأفعال هو معبودكم الذى لا تصلح العبادة إلا له ، وهو ربكم الذى له الملك التام والسلطان المطلق والقهر والجبوت ، وكل من في السموات والأرض فهو عبد له وتحت قبضته وبطشه .

(والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) أى والذين تعبدونهم من الأصنام والأوثان لا يملكون شيئا ولو كان حقيرا ، بل هم ملك لخالق القوي والقدر . ثم أكد ما سلف مبينا حقارة شأنهم وعظيم ضعفهم بقوله :

(إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم) أى وإن تدعوا هذه الآلهة من دون الله لا تسمع لكم دعاء ، لأنهم جهاد لا أرواح لهم ، ولو سمعوا ما قدروا أن ينفعوكم ويستجيبوا لشيء مما تطلبون .

والخلاصة — كيف تعبدون من لا ينفع ولا يضر وتدعون من بيده النفع والضرر ، وهو الذى ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون .

وبعد أن نفى المقتضى للعبادة ، وهو محجى النفع والضرر من قبلهم ، ذكر المانع من عبادتهم وهو كفرهم بهم يوم القيامة فقال :

(ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أى وهم يوم القيامة يتبرءون منكم ويقولون : ما كنتم إيانا تعبدون ، بل كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم وما زينته لكم شياطينكم . ونحو الآية قوله : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا : كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » .

ثم أكد صدق ما حكاه عنهم من أحوالهم بقوله :

(ولا ينبئك مثل خبير) أى ولا يخبرك عن أمر هذه الآلهة وعن أمر عبدتها يوم القيامة إلا ذو خبرة بأمرها وأمرهم ، وهو الله الذى لا يخفى عليه شئ ، كان ، أو سيكون فى مستأنف الزمان .

يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ
يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧)
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جِهَلِمَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) .

شرح المفردات

ولا تزر : أى ولا تحمل ، وازرة : أى نفس آثمة ، وزر أخرى : أى إثم نفس
أخرى ، والمثقلة : النفس التى أثقلتها الذنوب والأوزار ، ذا قربى : أى ذا قرابة من
الداعى ، بالغيب : أى غائبا عنهم ، وتزكى : أى تطهر من دنس الأوزار والذنوب ،
والمصير : المرجع والعاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن ملك السموات والأرض له ، وأن ما يدعون من دونه
من الأصنام والأوثان لا يملك شيئا ولا يجلب نفعا ولا يدفع ضرا - أعقب هذا بما هو
فذلكة لما تقدم وكالنتيجة له ، بأنه لا افتقار إلا إليه ولا اتكال إلا عليه ، فهو الذى
تجب عبادته وحده ، لأن النفع والضرر بيده لا شريك له ؛ ثم بين أنه يوم القيامة

لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا تستطيع دفع ضرعها ولو كانت ذات قرابة منها ،
ثم أرشد إلى أن البشارة والإنذار إنما تجدى نفعا لدى من يخشى الله ويخاف عقابه ،
وأن من يتزكى فإنما يتزكى لنفسه ونفع ذلك عائد إليه ، وإلى الله عاقبة الأمور كلها
ومردها إليه .

الإيضاح

(يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد) أى أتم أيها العباد
أولو الحاجة والفقير إلى خالقكم ورازقكم ، فإياه فاعبدوا ، وإلى رضاه فاسارعوا ، وهو
الغنى عن عبادتكم وعن غيرها ، وهو الحمود على نعمه ، فكل نعمة بكم وبسواكم
فهي منه ، فله الحمد والشكر على كل حال .

والخلاصة — أنتم فى حاجة إليه وهو ذو الغنى وحده لاشريك له ، والحمود
فى جميع ما يقول ويفعل ويشرع لكم ولغيركم من الأحكام .
ثم أرشد إلى غناه وإلى قدرته الكاملة بقوله :

(إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) أى إن يشأ ربكم
أن يهلككم أهللكم ، لأنه هو الذى أنشأكم من غير حاجة به إليكم ، ويأت
بخلق سواكم يطيعونه ويأترون بأمره وينتهون عما نهاهم عنه ، وما ذلك بصعب
على الله الخالق لجميع عباده ، بل هو يسير هين عليه .

وليس يخاف ما فى هذا من تهديد ووعيد ، وزجر وتأنيب .
ثم أخبر عن أحوال يوم القيامة وأهوالها وشدائدها بقوله :

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى ولا تحمل نفس مذنبية ذنب نفس أخرى ،
بل تحمل كل نفس وزرها فحسب ، ولا تنافى بين هذا وما جاء فى سورة العنكبوت
من قوله سبحانه : « وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ » فإن هذا فى الضالين
المضلين وهم يحملون إثم إضلالهم مع إثم ضلالهم ، وكل ذلك آثامهم لا آثام غيرهم .

(وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) أى وإن تسأل نفس ذات ثقل من الذنوب ، من يحمل عنها ذنوبها ؟ لم تجد من يجيئها إلى ما تطلب ولو كان المدعو ذا قرابة لها كآب أو ابن ، إذ كلُّ مشغول بنفسه ولكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .

ونحو الآية قوله : « لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا » وقوله : « يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنَ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

قال عكرمة : إن الوالد ليمتلق بولده يوم القيامة فيقول يا بُنَيَّ : أى والد كنت لك ؟ فيثنى خيرا فيقول له يا بنى إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجوبها مما ترى ، فيقول له ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجه فيقول يا فلانة : أى زوج كنت لك ؟ فتثنى خيرا فيقول لها إني أطلب إليك حسنة واحدة تهينها لى لعل أنجوبها مما ترين ، فتقول ما أيسر ما طلبت ، ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا ، إني أخوف مثل الذى تتخوف .

ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم عن عدم قبولهم دعوته وإصرارهم على عنادهم فقال :

(إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) أى إنما يجدى النصيح والإنذار لدى من يخشون الله ويخافون شديد عقابه يوم القيامة من غير معاينة منهم لذلك ، بل لا يمانهم بما أنيت به وتصديقهم لك فيما أنبأت به عن ربك ، فهوؤلاء هم الذين ينفعهم إنذارك ويتعظون بمواعظك ، لا من طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون - إلى أنهم يؤدون الصلاة المفروضة عليهم ويقيمونها على ما رسمه الدين ،

فهى التى تطهر قلوبهم وتقربهم من ربهم حين مناجاتهم له كما جاء فى الحديث « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والخلاصة — إنه إنما ينفع إنذارك وتخويفك من يخشى بأس الله وشديد عقابه دون من عداهم من أهل التمرد والعناد .

ثم حث على الأعمال الصالحة وأبان أن فائدتها عائدة إليهم فقال :

(ومن تركى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير) أى ومن يتطهر من أدناس الشرك وأوضار الذنوب والمعاصى فنفع ذلك عائد إليه ؛ كما أن من يتدسّى بالذنوب والآثام فضر ذلك راجع إليه ، وإلى الله مصير كل عامل وهو مجازيه بما قدم من خير أو شر على ما جنى وأثّل لنفسه .

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠)
وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) .

شرح المفردات

الحرور : السموم إلا أن السموم يكون بالنهار والحرور بالليل والنهار ، خلا : أى سلف ومضى ، ونذير : أى منذر وخوف وهو النبي ، والبيّنات : أى المعجزات

الدالة على صدقهم فيما يدعون ، والزبر : واحدها زبور وهو الكتاب ، النكير : الإنكار بالعقوبة .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه طريق الهدى وطريق الضلالة وذكر أن المستعد للإيمان قد اهتدى بهدى النذير ، والجاحد المعاند قسا قلبه ولم يستفد من هديه - ضرب مثله تنجلى حالهما ، ثم ذكر أن الهداية بيد الله يمنحها من يشاء وأن هؤلاء المشركين كالموتى لا يسمعون نصيحة ولا يهتدون بعظة ، وأن الله لم يترك أمة سدى بل أرسل الرسل ؛ فمنهم من أجاب دعوة الداعى ونجا ، ومنهم من استكبر وعصى ، وكانت عاقبته الوبال والنكال فى الدنيا والنار فى العقبى .

الإيضاح

(وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور) أى وما يستوى الأعمى عن دين الله الذى ابتعث به نبيه صلى الله عليه وسلم والبصير الذى قد أبصر فيه رشده فاتبع محمدا صلى الله عليه وسلم وصدقه وقبل عن الله ما ابتعثه به ، وما تستوى ظلمات الكفر ونور الإيمان ولا الثواب والعقاب .

ثم ضرب مثلا آخر لها فقال :

(وما يستوى الأحياء ولا الأموات) أى وما يستوى أحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله ومعرفة كتابه وتنزيله ، وأموات القلوب بغلبة الكفر عليها حتى صارت لاتعقل عن الله أمره ونهيه ومعرفة الهدى من الضلال وكل هذه أمثال ضربها الله للمؤمن والإيمان والكافر والكفر .

ونحو الآية قوله : « أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟ » وقوله : « مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ؟ » .

والخلاصة — إن المؤمن بصير سميع نير القلب يمشى على صراط مستقيم فى الدنيا وفى الآخرة حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى وأصم يمشى فى ظلمات لا خروج له منها ، فهو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة حتى يفضى به ذلك إلى حرور وسوم ، وحيم وظل من يحوم ، لا بارد ولا كريم .

ثم بين أن الهداية والتوفيق بيده سبحانه وحده فقال :

(إن الله يسمع من يشاء) أى إن الله يهدى من يشاء إلى سماع الحجة وقبولها بخلق الاستعداد فيه للهداية .

ثم ضرب مثلا لهؤلاء المشركين وجعلهم كالأموات لا يسمعون فقال :

(وما أنت بمسمع من فى القبور) أى فكما لا تقدر أن تسمع من فى القبور كتاب الله فتهديهم به إلى سبيل الرشاد ، لا تقدر أن تنفع بمواعظ الله وحججه من كان ميت القلب لا يستطيع معرفة الله ولا فهم كتابه وواضح حججه .

والخلاصة — كما لا ينفع الأموات بعد أن صاروا إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها — كذلك هؤلاء المشركون لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم .

ثم بين عمل الرسول فقال :

(إن أنت إلا نذير) أى ما أنت إلا منذر عقاب الله لهؤلاء المشركين الذين طمع على قلوبهم ، ولم تكلف هدايتهم وقبولهم ماجئتهم به ، فإن ذلك بيده تعالى لا بيدك ولا بيد غيرك ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن هم لم يستجبوا لك . ثم بين سبحانه أنه ليس نذيرا من تلقاء نفسه ، بل بإذن ربه وإرادته وأنه ما جاء إلا بالحق فقال :

(إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) أى إنا أرسلناك أيها الرسول بالإيمان بى وحدى ، وبالشرائع التى فرضتها على عبادى ، مبشرا بالجنة من صدقت وقبل منك ما جئت به من عندى ، ونذيرا بعقاب من كذبك ورد عليك ما أوحى به إليك .

ثم بين فضله سبحانه على عباده ورحمته بهم وأنه لم يتركهم دون أن يبين لهم طريق الهدى والضلال فقال :

(وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) أى وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذر وأزاح عنهم الغل كما قال : « لِكَيْلَا يَكُونَنَّ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » وقال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » وقال : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ » .

ثم سلى رسوله عما يلاقيه من قومه من الإصرار على العناد والتكذيب وأبان له أنه ليس ببدع من بين الرسل فقال :

(وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) أى وإن يكذبك أيها الرسول مشركو قومك فلا تهتس بما يفعلون ، فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الذين جاءوهم بالمعجزات الباهرة والأدلة القاطعة وبالكتب الواضحة كالطورا والإنجيل وصحف إبراهيم وزبور داود ، وبعد أن سلاه هدد من خالفوه وعصوه بمثل ما فعل بمن قبلهم من الماضين فقال :

(ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير) أى وبعد أن أتاها الرسل بما أتوهم كذبوهم فيما جاءوهم به فأخذتهم بالعقاب والنكال ، فانظر كيف كان شديد عقابي بهم وإنكارى عليهم ، فإن تمادى قومك وأصروا على إنكارهم واستمروا في عمايتهم حل بهم مثل ما حل بأولئك ، فتلك سنة الله لا تبدل لها ولا تغيير . « سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » .

ولا يخفى ما فى هذا من شديد التهديد والوعيد .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا
أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧)
وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ
مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)

شرح المفردات

ألوانها : أى من أحمر إلى أصفر إلى أخضر إلى نحو ذلك ، الجدد : واحدها
جدة (بالضم) وهى الطريق المختلفة الألوان فى الجبل ونحوه ، والغرابيب : واحدها
غريب وهو شديد السواد ؛ يقال أسود غريب وأبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قان ،
وفى الحديث « إن الله يبعث الشيخ الغريب » يعنى الذى يخضب بالسواد ، وقال
امروء القيس فى وصف فرسه :

العين طاححة واليد سباحة والرجل لائحة والوجه غريب

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه دلائل وحدانيته وعظيم قدرته التى أعرض عنها المشركون
عنادا واستكبارا - أردف ذلك ذكر ما يروونه من المشاهدات الكونية المختلفة
الأشكال والألوان لعل ذلك يعيد إليهم أحلامهم وفيه عقولهم إلى الاعتبار
بما يرون ويشاهدون .

الإيضاح

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا) يقول
سبحانه منبها إلى كمال قدرته : ألم تشاهد أيها الرأى أنا خلقنا الأشياء المختلفة من الشئ

الواحد ، فَأَنْزَلْنَا الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ وَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَطَعْمُهَا وَرَوَائِحُهَا
كما هو مشاهد من ألوان الثمار من أصفر إلى أحمر إلى أخضر إلى نحو ذلك .

ونحو الآية قوله : « وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَبَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ
وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ
فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتِلُونَ » .

(ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود) أى وخلق
الجبال كذلك مختلفة الألوان من بيض إلى حمر إلى سود غرايب كما هو مشاهد ،
وفى بعضها طرائق مختلفة الألوان أيضا .

(ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) أى وكذلك الناس
والدواب والأنعام مختلفة الألوان فى الجنس الواحد ، بل الحيوان الواحد قد يكون
فيه ألوان مختلفة ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ونحو الآية قوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ
الْأَلْوَانِكُمْ وَالْأَلْوَانِكُمْ » .

ولما عدد آياته وأعلام قدرته وآثار صنعه بين أنه لا يعرف ذلك حق المعرفة
إلا العلماء بأسرار الكون العالمون بدقائق صنعه تعالى ، فهم الذين يفهمون ذلك حق
الفهم ويعلمون شديد بطشه وعظيم قهره فقال :

(إنما يخشى الله من عباده العلماء) أى إنما يخاف الله فيمتحن عقابه بطاعته -
العالمون بعظيم قدرته على ما يشاء من الأشياء وأنه يفعل ما يريد ، لأن من علم ذلك
أيقن بعقابه على معصيته تخافه ورهبه خشية أن يعاقبه .

وقد أثر عن ابن عباس أنه قال : العالم بالرحمن من عباده ، من لم يشرك به شيئا ،
وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسبه بعمله .

وقال الحسن البصرى: العالم من خشى الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه ثم تلا الآية .

وعن عائشة قالت : « صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فرخص فيه ، فتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فخطب فحمد الله ثم قال : ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » ، أخرجه البخارى ومسلم .

ثم بين سبب خشيتهم منه فقال :
(إن الله عزيز غفور) أى إن الله عزيز فى انتقامه ممن كفر به ، غفور لذنوب من آمن به وأطاعه ، فهو قادر على عقوبة العصاة وقهرهم : وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم ، ومن حق العاقب والمثيب أن يُخشى .

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) .

شرح المفردات

يتلون : أى يتبعون من قولهم تلاه إذا تبعه ، لأن التلاوة بلا عمل لا نفع فيها ، وقد ورد : « رَبِّ قَارِئُ الْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ يُلْعَنُ » والمراد من التجارة المعاملة مع الله لنيل الثواب ، وتبور : أى تكسد .

المعنى الجملى

لما بين سبحانه أن العلماء هم الذين يخشون الله ويخافون عقابه - أردف ذلك ذكر حال العاملين بكتاب الله العاملين بما فرض فيه من أحكام كإقامة الصلاة

وإيتاء الزكاة في السر والعلن ، وأبان أن هؤلاء يرجون ثوابا من ربهم كفاء أعمالهم ، بل أضعاف ذلك فضلا من ربهم ورحمة منه ، ويطمعون في غفران زلاتهم ، لأنه الغفور الشكور لهم على ما أحسنوا من عمل .

الإيضاح

إن الذين يتبعون كتاب الله ويعملون بما فرض فيه من فرائض ، فيؤدون الصلاة المفروضة لمواقيتها على ما رسمه الدين بإخلاص وخشية من ربهم ، ويتصدقون بما أعطاهم ربهم من الأموال سرا وعلانية بلا بسط ولا إسراف - هؤلاء قد عاملوا ربهم راجين ربح تجارتهم بنيلهم عظيم ثوابه كفاء ما قدموا من عمل مع الإخبات والإنابة إليه ، ويتنعمون فضلا منه ورحمة فوق ذلك ، وغفرانا لما فرط من زلاتهم ، وما اجتروحا من سيئاتهم ؛ فالله هو الغفور لما فرط من الطمعين من الزلات ، الشكور لطاعاتهم ، فجازيهم عليها الجزاء الأوفى .

ونحو الآية قوله : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » .

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
 إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ
 عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ
 ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
 أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
 أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ
 مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا الْغُوبُ (٣٥)

شرح المفردات

الكتاب : هو القرآن ، مصداقاً لما بين يديه : أى لما تقدمه من الكتب السماوية ، خير بصير : أى محيط ببواطن أمورهم وظواهرها ، مقتصد : أى عامل به تارة ، ومخالف له أخرى ، سابق : أى متقدم إلى ثواب الله راجع دخول جنته ، بالخيرات أى بسبب ما يعمل من الخيرات والأعمال الصالحة ، بإذن الله : أى بتوقيفه وتيسيره ، والحزن : هو الخوف من محذور يقع فى المستقبل ، دار المقامة : أى دار الإقامة التى لا انتقال عنها أبداً ، وهى الجنة ، نصب : أى تعب ، وانغوب : أى كلال وفتور .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم أجرهم - أكد هذا وقرره بأن هذا الكتاب حق وصدق ، وهو مصدق لما بين يديه من الكتب ، فتاليه مستحق لهذا الأجر والثواب ، ثم قسم هؤلاء الذين أورثوا الكتاب أقساماً ثلاثة : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ، ثم ذكر جزاء هؤلاء السابقين ، وأنهم يدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار وأنهم يحلون فيها أساور الذهب واللؤلؤ ويلبسون الحرير ، ويقولون حينئذ : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، ويقولون : إنه أحلنا داراً لا نصب فيها ولا تعب .

الإيضاح

(والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصداقاً لما بين يديه) أى إن القرآن الذى أنزلناه عليك هو الحق من ربك ، وعليك وعلى أمتك أن تعمل به وتتبع ما فيه ، دون غيره من الكتب التى أوحيت إلى غيرك ، وهو مصدق لما مضى بين يديه مما أنزل على الرسل من قبله فصار إماماً لها .
(إن الله بعباده خبير بصير) أى إن الله خبير بأحوال عباده ، بصير بما يصلح

لهم فيشرع لهم من الأحكام ما يناسب أحوال الناس في كل زمان ومكان ، ويرسل من الرسل من هو حقيق بتبليغ ذلك للناس « الله أعلم حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .
 (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) أى أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه من اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة التى هى خير الأمم بشهادة الكتاب « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » وجعلناهم أقساما ثلاثة :

- (١) ظالم لنفسه مفرط في فعل بعض الواجبات مرتكب لبعض المحرمات .
 - (٢) مقتصد مؤد للواجبات تارك للمحرمات تقع منه تارة بعض الهفوات ، وحيناً يترك بعض المستحسنيات .
 - (٣) سابق بالخيرات بإذن الله ، يقوم بأداء الواجبات والمستحبات ويترك المحرمات والمكروهات وبعض المباحات .
- والخلاصة — إن الأمة في العمل أقسام ثلاثة : مقصر في العمل بالكتاب مسرف على نفسه . ومتردد بين العمل به ومخالفته . ومتقدم إلى ثواب الله بعمل الخيرات وصالح الأعمال بتيسير الله وتوفيقه .
- وقال الحسن : الظالم الذى ترجح سيئاته على حسناته ، والمقتصد الذى استوت حسناته وسيئاته ، والسابق من رجحت حسناته على سيئاته .
- (ذلك هو الفضل الكبير) أى ذلك الميراث والاصطفاء فضل عظيم من الله لا يقدر قدره .

وبعد أن ذكر سبحانه أحوال السابقين بين جزاءهم وما لهم بقوله :

(جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ، ولباسهم فيها حرير) أى بساتين إقامة يدخلها هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب واصطفيناهم من عبادنا يوم القيامة ، ويحلون فيها أسورة من ذهب ولآلى ويكون لباسهم حريرا .

(وقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) أى ويقولون حينئذ : الحمد لله الذى أذهب عنا الخوف من كل ما نحذر ، وأراحنا بما كنا نتخوف من هموم الدنيا والآخرة . ثم ذكر السبب فى ذهاب الحزن عنهم فقال :

(إن ربنا لغفور شكور) أى إن ربنا الغفور لذنوب المذنبين ، شكور للطيعين ، روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى نشورهم ، وكأنى بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » .

والخلاصة — إنه أذهب عنهم الحزن من خوف العقاب ومن أجل المعاش والوساوس الشيطانية .

ولما ذكر سرورهم وكرامتهم بتخليتهم بالحلى وإدخالهم الجنات — ذكر سرورهم ببقائهم فيها وأعلامهم بدوامها فقال :

(الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) أى إن ربنا لغفور شكور ، لأنه أنزلنا الجنة التى لا تحول عنها ولا نقلة ، ولا يصيبنا فيها تعب ولا وجع ولا إعياء ولا فتور .

والخلاصة — إنهم أتعبوا أنفسهم فى العبادة فى دار الدنيا فاستراحوا راحة دائمة فى الآخرة كما قال : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ؛ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ؟ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) .

شرح المفردات

لا يقضى عليهم : أى لا يحكم عليهم بموت ثانٍ ، يطرخون : أى يصيحون
أشد الصياح للاستغاثة ، نعمركم : أى نهلكم ، للظالمين : أى للكافرين ، نصير :
أى معين يدفع عنهم العذاب .

المعنى الجملى

بعد أن بين ما لعباده الذين أورثوا الكتاب من النعمة فى دار السرور التى قال
فى مثلها القائل :

علياء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سراء
أردف ذلك بذكر ما لأضدادهم من النعمة زيادة فى سرورهم بما قاسوا فى الدنيا
من تكبرهم عليهم وفخارهم بما أوتوا من نعم زائل وحبور لا يدوم .

الإيضاح

(والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها)
أى والذين ستروا ما تدل عليه العقول من شمس الآيات وأنوار الدلالات ، لهم نار
جهنم لا يحكم عليهم فيها بموت ثانٍ فيستريحوا من الآلام ، ولا يخفف عنهم العذاب
فيها ، بل كلما خبت زيد سعيها .

ونحو الآية قوله « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ، قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ »
وقوله : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّتَسَاوِينَ . لَيْفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ »
وقوله : « كَلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا » وقوله : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ
إِلَّا عَذَابًا » .

ثم بين أن هذا جزاء كل كافر بنعمة ربه ، جاحد بوحدانيته فقال :

(كذلك نجزي كل كفور) أى وهكذا نكافئ كل جاحد لآلاء الله منكراً
لرسله ، فندخله نار جهنم بما قدم من سيئات فى الدنيا .

(وهم يصطرون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كننا نعمل) أى وهم
يستغيثون ويضجون فى النار يقولون ربنا أخرجنا منها وأعدنا إلى دار الدنيا
نطعمك ونعمل غير الذى كننا نعمل من معصيتك ، وقد علم منهم أنه لو ردهم إلى هذه
الدار لعادوا إلى ما نهوا عنه .

وحينئذ يقال لهم تقرعوا وتوبيخا :

(أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ؟) أى أو ما عشتم فى الدنيا أعمارا لو كنتم
من ينتفعون بالحق لا تنفعتم به مدة عمركم ؟

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم « فَهَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » .

والخلاصة — إنه تعالى لا يحييكم إلى ما طلبتم ، لأنكم كنتم عصاة ولو رددتم
لعدتم إلى ما نهيتهم عنه .

روى أحمد عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لقد أعذر الله إلى
عبد أحياء حتى بلغ ستين أو سبعين ، لقد أعذر الله تعالى إليه ، لقد أعذر
الله تعالى إليه » .

(وجاءكم النذير) أى وجاءكم الرسول ومعه كتاب الله ينذركم بالعقاب إن خالفتهم
أمره وتركتم طاعته .

والخلاصة — إنه احتج عليهم بأمرين : طول العمل ، وإرسال الرسل .

ونحو الآية قوله : « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ . قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ .
لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ » وقوله : « كَلَّمَ الْقَلْبَ
فِيهَا فَوْجٌ سَأَلُوهُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا
وَقُلْنَا : مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ » .

وقد استبان مما تقدم أنهم لا يخرجون منها ، ومن ثم قال :
 (فذوقوا فما للظالمين من نصير) أى فذوقوا عذاب النار جزاء مخالفتكم للأنبياء
 فى حياتكم الدنيا ، وإن تجددوا لكم ناصرا ينفذكم مما أنتم فيه من العذاب
 والسلاسل والأغلال .

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨)
 هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَلَا
 يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ، وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ
 كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) .

شرح المفردات

ذات الصدور : هى المعتقدات والظنون التى فى النفوس ، والخلائف : واحد
 خليفة ؛ وهو الذى يقوم بما كان قائما به سلفه ، مقنا : أى بغضا واحتقارا ، خسارا :
 أى خسارة ؛ فالعمر كرأس مال إذا اشترى به صاحبه رضا الله ربح ، وإذا اشترى به
 سخطه خسر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أنه ليس للظالمين من ينصرهم ويدفع العذاب عنهم -
 أردف ذلك ببيان أن الله محيط بالأشياء علما ، فلو كان لهم نصير فى وقت ما علمه .
 إلى أنه تعالى لما نفى النصير على سبيل الاستمرار ، وكان ذلك مظنة أن يقال
 كيف يخلدون فى العذاب وقد ظلموا فى أيام معدودات - أعقب ذلك بذكر أنه علم
 بما انطوت عليه ضمائرهم ، وأنهم صمموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد ،
 فمهما طالت أعمارهم فلن تتغير حالهم .

الإيضاح

(إن الله عالم غيب السموات والأرض) أى إن الله عالم ما تخفون أيها المشركون في أنفسكم وما تضمرون وما ستندون أن تفعلوه ، وما هو غائب عن أبصاركم في السموات والأرض ، فاتقوه أن يطالع عليكم وأنتم تضمرون السكيد لرسوله ، وتريدون إطفاء دينه ، وتنصرون آلهتكم التى لا تنفعكم شيئاً يوم القيامة .

ثم علل هذا بقوله :

(إنه عليم بذات الصدور) أى لأنه عليم بما تكنه السرائر ، وما تنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بما عمل .

وفي هذا إيماء إلى أنه لو مد أعمارهم لم يرجعوا عن الكفر أبداً ، فلا مطمع في صلاحهم .

ثم ذكر ما هو سبب آخر لعلمه بالغيب فقال :

(هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) أى هو الذى ألقى إليكم مقاليد التصرف والانتفاع بما فى الأرض لتشكروه بالتوحيد والطاعة .

(فن كفر فعليه كفره) أى فن غط مثل هذه النعمة العظيمة فإنما يعود وبال ذلك إلى نفسه دون غيره ، لأنه هو المعاقب لاسواه .

ثم فصل ذلك وبينه بقوله :

(ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقناً) أى وكلما استمروا فى كفرهم أبغضهم ربهم وغضب عليهم .

(ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً) أى وكلما اطمأنوا إليه خسروا أنفسهم يوم القيامة وحق عليهم سوء العذاب .

والتكرير للتنبيه إلى اقتضاء الكفر لكل من الأمرين القبيحين على سبيل

الاستقلال .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ؟ بَلْ إِنْ يَعْذِرُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ؛ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) .

شرح المفردات

أرأيتم : أى أخبروني ، شرك : أى شركة ، يمسك : أى يحفظ ، وتزول : أى تضطرب وتنتقل من أماكنها .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنه هو الذى استخلفهم فى الأرض - أكد هذا بأمره صلى الله عليه وسلم بما يضطرهم إلى الاعتراف بوحديته وعدم إشراك غيره معه .

الإيضاح

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ) أى أخبروني أيها المشركون عن شركائكم الذين تدعونهم من دُونِ اللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ - أَرُونِي أى جزء من الأرض أو من الأناسى والحيوان خلقوا حتى يستحقوا الإلهية والشركة .

والخلاصة - أعلمتم هذه الآلهة ما هى ؟ وعلى أى حال هى ؟ فإن كنتم تعلمون أنها عاجزة ، فكيف تعبدونها ، وإن كنتم توهمتم فيها القدرة فأرونى أثرها ؟ .
(أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ) أى أَمْ لَهُمْ شَرَكَةٌ مَعَ اللَّهِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ حَتَّى يَسْتَحِقُّوا مَا زَعَمْتُمْ فِيهِمْ .

(أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ؟) أى أم هناك كتاب أوتوه ينطق بأننا اتخذناهم شركاء ، فهم على حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة معنا .
 وخلاصة ما تقدم — أخبروني عن تعبدونهم من دون الله ، هل استبدوا بخلق شيء من الأرض حتى يعبدوا كعبادة الله ، أولهم شركة معه فى خلق السموات ، وآتيناهم برهاناً بهذه الشركة .

الخلاصة : إن عبادة هؤلاء إما بدليل من العقل ، ولا عقل يحكم بعبادة من لا يخلق شيئاً ، وإما بدليل من النقل ، وإن لم تؤت المشركين كتاباً فيه الأمر بعبادة هؤلاء .
 وبعد أن نفى ما نفى من الحجج أضرب عنه بأن الذى حملهم على الشرك هو تقرير السلف للخلف وإضلال الرؤساء للأتباع وقولهم لهم : إن هؤلاء شفعا يشفعون لهم عند الله إذا هم عبدوهم ، وإلى هذا أشار بقوله :

(بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً) أى بل إنما اتبعوا فى ذلك آراء أسلافهم وضلالهم ، وما هى إلا غرور وأباطيل .

ولما أبان حقارة الأصنام أرشد إلى عظيمته تعالى فقال :

(إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) أى إن الله يمنع السموات أن تضطرب من أماكنها ، فترتفع أو تنخفض وينع الأرض من مثل ذلك ، ويحفظهما برباط خاص ، وهو ما يسميه العلماء نظام الجاذبية ، لجميع العوالم من الأرض والقمر والشمس والسيارات الأخرى تجرى فى مدارات خاصة بهذا النظام الذى وضع لها ، ولولا ذلك لتحطمت هذه الكرات المشاهدة وزالت عن أماكنها ، لكنها به ثبتت فى مواضعها واستقرت فى مداراتها .

(وإئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) أى وإن أشرفت على الزوال ما استطاع أحد أن أمسكهما من بعد الله .

والخلاصة — إنه لا يقدر على دوانهما وبقائهما على هذا الوضع إلا اللطيف الخبير .

ونحو الآية قوله : « وَيُمْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » وقوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ » .

(إنه كان حليما غفورا) ومن ثم حلم على المشركين وغفر ابن تاب منهم على عظيم جرمهم المقتضى تعجيل العقوبة لهم .
والخلاصة — إنه يحلم ويُنتظر ، ويُؤجل ولا يعجل ، ويسترو يغفر .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢)
استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ،
فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا (٤٣) .

شرح المفردات

وأقسموا : أى حلف المشركون ، جهد أيمانهم : أى غاية اجتهادهم فيها ، نذير : أى رسول ، أهدى من إحدى الأمم : المراد بها اليهود أو النصارى ، نفورا : أى تباعدا عن الحق ، مكر السيئ : أى المكر السيئ الذى فيه خداع وكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يحيق : أى ولا يصيب ولا ينزل ، سنة الأولين : أى سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم ، تبديلا : بوضع الرحمة موضع العذاب ، تحويلا : بأن ينقل عذابه من المكذبين إلى غيرهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه تكذيبهم للتوحيد ياشرا بهم الأوثان والأصنام وبكتهم على هذا أشد التبكيت وضرب لهم الأمثال ليبين لهم سخف عقولهم وقبح معتقداتهم ،

أردف ذلك بذكر إنكارهم للرسالة بعد أن كانوا مترقبين لها ناعين على أهل الكتاب تكذيب بعضهم بعضاً، فقالت اليهود: ليست النصراني على شيء، وقالت النصراني: ليست اليهود على شيء، ثم هددهم بأن عاقبتهم ستكون الهلاك الذي لا يحصى منه، وتلك سنة الله في الأولين من قبلهم، وسنته لا تبدل فيها ولا تحويل.

الإيضاح

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم) أي وأقسم المشركون بالله أغلظ الأيمان وبالغوا فيها أشد المبالغة: لئن جاءهم من الله رسول يندهم بأسه، ليكونن أسلاك لطريق الحق وأشد قبولا له من أي أمة من الأمم التي خلت من قبلهم.

(فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا. استكبارا في الأرض ومكر السيئ) أي ولكن حين جاءهم الرسول انعكست الآية، فما زادهم بحجته إلا بعدا من الإيمان بالله وانصرافا عن الحق واستكبارا عن اتباع آيات الله، ومكروا بالناس مكرا سيئا فصدوهم عن سبيل الله.

والخلاصة — إنه تبين أنه لاعهد لهم مع ادعائهم أنهم أوفى الناس، ولا صدق لهم مع جزمهم بأنهم أصدق الخلق، وصار مثلهم مثل الإبل التي نفرت من ربها فضلت عن الطريق فدعاها فازدادت بدعائه نفرة وصارت بحيث يتعذر أويتعسر ردها.

ثم بين أن عاقبة مكرم عادت عليهم بالويل بقوله:

(ولا يحيق المسكر السيئ إلا بأهله) أي ولا يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم

دون غيرهم.

روى الزهري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تمكروا ولا تعينوا ما كرا فإن الله يقول: «وَلَا يَحِيقُ الْمَسْكُرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا

فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : « إِنَّمَا بَقَّيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » وَلَا تَنْكَبُوا وَلَا تَعِينُوا نَاكِثًا فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : « فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ » .

وقد وقع مثل هذا في كلام العرب فقد قالوا: من حفر لأخيه جُبًّا وقع فيه منكبًا .
والعبرة في الأمور بالعواقب ، والله يهمل ولا يهمل ووراء الدنيا الآخرة ، فإن لم يجازلما كر في هذه الدار فسيلقى الجزاء في الآخرة « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ؟ » .

ثم هددهم بأن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من العذاب فقال :
(فهل ينظرون إلا سنة الأولين) أى فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك إلا أن أحل بهم من نعمتي على شرهم بى وتكذيبهم رسولى - مثل ما أحللت بمن قبلهم من أمثالهم الذين كذبوا رسالهم .

ثم علل انتظارهم للعذاب وتهديدهم به بقوله :
(فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا) أى وهذه سنة الله في كل مكذب فلا تغير ولا تبدل ، ولن يجعل الرحمة موضع العذاب ، ولن يحول العذاب من نفس إلى أخرى كما قال : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) .

المعنى الجملى

بعد أن هدد المشركين بجرىان سنة الله فيهم بإهلاكهم كما أهلك المكذبين من قبلهم - نبيهم إلى ذلك بما يشاهدونه من آثارهم في رحلاتهم للتجارة في الشام والعراق واليمن ، فقد خلت منهم منازلهم وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدد ، وكثرة المال والولد ، وما أغنى ذلك عنهم شيئا ولا دفع عنهم من عذابه لما جاء أمره ، لأنه لا يعجزه شيء إذا أراد .

ثم ذكر خلقه بعباده وأنه لو أخذهم بما اجترحوا من السيئات ما ترك على ظهر الأرض إنسانا يذب على وجهها ، لكنه أخر عقابهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم ويوفي كل عامل جزاء عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهو البصير بحال عباده .

الإيضاح

(أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ؟) أى أو لم يسر هؤلاء المشركون بالله في الأرض التى أهلكنا فيها أهلها بكفرهم بنا وتكذيبهم رسلنا ، أثناء رحلاتهم التى يسلكونها إلى طريق الشام فى تجارتهم ، فينظروا كيف كانت عاقبتهم - ألم نهلكهم ونخرب مساكنهم ونجعلهم مثلا لمن بعدهم فيتعضوا بهم وينزجروا عما هم عليه من الشرك بعبادتهم الآلهة من الأوثان والأصنام ؟

ثم بين أنهم إذا ساروا على تمردهم وعنادهم فهم لا يفلتون من عقابه فقال :

(وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض) أى وإن يعجز الله هؤلاء المشركون به المكذبون لرسوله فيسبقوه هربا وينجوا من الهلاك إذا هو أراد ذلك بهم ، لأنه لا يعجزه شيء يريد فى السموات ولا فى الأرض .

وغير خافٍ ما فى هذا من شديد الوعيد وعظيم التهديد لهم .

ثم علل عدم عجزه عن شىء فيهما بقوله :

(إنه كان عليهما قديرا) أى إنه تعالى عليم بمن يستحق أن يجعل له العقوبة ، ومن قد تاب وأناب إلى ربه ورجع عن ضلالته ، قدير على الانتقام ممن شاء منهم ، وعلى توفيق من أراد الإيمان .

ولما كان المشركون يستعجلون بالوعيد استهزاء فيقولون « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » يبين أنه لا يعاجلهم بالعقوبة على ما كسبوا ، لعلمهم بنبؤهم أو ينبى بعضهم إلى ربه ، ويتوب إلى رشده فقال :

(ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) أى ولو يعاقب الله الناس ويكافئهم بما عملوا من الذنوب واجترحوا من الآثام ما ترك على ظهر الأرض نسيمة تدب لشؤم المعاصى التى يفتنون فيها .

(ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) أى ولكن يؤخر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا إلى أجل حدده عنده لا يقصرون دونه ولا يتجاوزونه إذا بلغوه .

(فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا) أى فإذا حل الأجل فإن الله يجازى المكلفين بما عملوا من خير أو شر ، لا يخفى عليه شىء من أمرهم ، دق أو جل ، ظهر أو بطن .

اللهم أحسن أعمالنا ظواهرها وبواطنها ، وتقبل منا ما نعمل مما يرضيك إنك أنت الخبير البصير .

بجمل ما اشتملت عليه السورة الكريمة من حكم وأحكام

- (١) الأدلة على قدرة الله بإبداعه للكون وأنه المنعم المتفضل .
- (٢) تذكير الناس بالنعم ليشكروها .
- (٣) تثبيت فؤاد رسوله بذكر قصص المكذبين للأنبياء والمرسلين .
- (٤) نداء الناس عامة بأن يتحلوا بالفضائل ، ويتخلوا عن الرذائل ولا يتبعوا خطوات الشيطان ، وينظروا فيما أبدع الرحمن من الآيات فى الأرض والسموات .
- (٥) ضرب الأمثال لما سلف من القسمين ، وإيضاح الطائفتين المؤمنة والكافرة .
- (٦) تقسيم المؤمنين إلى علماء محققين ، وصالحين متقين ، ثم تقسيمهم من حيث العمل أقساما ثلاثة .
- (٧) وصف عاقبة الكافرين والمؤمنين وما يلقاه كل منهما يوم القيامة .

سورة يس

هي مكية إلا قوله : « وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ » قُذِّبَتْ .

وآياتها ثلاث وثمانون ، نزلت بعد سورة الجن .

ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) إنه لما جاء في السورة السالفة قوله : « وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ » وقوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ » وقد أعرضوا عنه وكذبوه — افتتح هذه السورة بالقسم بصحة رسالته وأنه على صراط مستقيم لينذر قوما ما أنذر آباؤهم .

(٢) إنه قال فيما قبلها « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » وقال في هذه : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » وقال : « وَالْقَمَرُ قَدَرًا نَاهٍ . مَنَازِلَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) نَزِيلِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ

اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)
 إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ
 فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢)

شرح المفردات

(يس) تقدم الكلام في نظائره من الحروف المقطعة في أوائل السور ، وأن الرأى
 الزجيج فيها أنها حروف تنبيه نحو ألا ويا ، وينطق بأسمائها فيقال (ياسين) .
 روى عن ابن عباس أنه قال يس : أى يا إنسان بالغة طيء ، والحكيم : أى
 ذى الحكمة ، على صراط مستقيم : أى طريق قويم من عقائد صحيحة وشرائع حقة ،
 حق : أى ثبت ووجب ، الأغلال : واحدها غل ، وهو ما يشد به اليد إلى العنق
 للتعذيب والتشديد ، والمقمح : الذى يرفع رأسه ويعض بصره .
 قال أبو عبيدة : يقال قح البعير : إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب ، من بين
 أيديهم : أى من أمامهم ، فأغشيناهم : أى فغطينا أبصارهم ، والذكر : القرآن ،
 وخشى الرحمن : أى خشى عقابه ، بالغيب : أى قبل حلوله ومعاينة أهواله ، ماقدّموا :
 أى ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة ، وآثارهم : أى ما أبقوه بعدهم من
 الحسنات كعلم علموه ، أو كتاب ألقوه ، أو بناء فى سبيل الله بنوه ، أو من السيئات
 كفرس بذور الضلالات بين الناس ، فى إمام مبين : أى فى أصل يؤتم به .

الإيضاح

(يس) والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم (أى أقسم بالقرآن
 الحكيم الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنك أيها الرسول لمن المرسلين
 الذين هم على دين قديم وشرع مستقيم .

(تنزيل العزيز الرحيم) أى هذا الصراط المستقيم ، والدين القويم ، تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » .

(لتنذر قوما ما أنذر آبائهم فهم غافلون) أى إنا أرسلناك لتنذر العرب الذين لم يأتهم نذير من قبلك ، فهم فى غفلة عن معرفة الشرائع التى فيها سعادة البشر ، وإصلاح المجتمع .

وذكرهم وحدهم هنا ؛ لأن الخطاب كان معهم ، وهذا لا يمنع أنه مرسل إلى الناس كافة كما قال : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » .

(لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) أى لقد وجب العقاب على أكثرهم ، لأنه سبحانه سجل عليهم فى أم الكتاب أنهم لا يؤمنون به ولا يصدقون برسوله ، لما علم من خبث نفوسهم وسوء استعدادهم ، فلا تعمّر قلوبهم بالإيمان ، ولا تحبّث لله فى أى زمان . ثم ضرب لهم مثلا فقال :

(إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون) أى إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهي واصله إلى الأذقان ملصقة بها ، فهم من جرّاء ذلك مقمحون أى مرفوعو الرؤوس ، إذ أن طوق الغلّ الذى فى عنق المغلول يكون فى ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود خارجا من الحلقة إلى الذقن ، فلا يمكنه من أن يطاقط رأسه فلا يزال مقمحا .

والمراد منعناهم بوانع عن الإيمان تشبه ما ذكر ، فهم غاصو أبصارهم لا ياتفتقون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطاقطون رؤوسهم له .

ثم أكد ماسبق وزاده بيانا وتفصيلا فقال :

(وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون)
 أى إنه زُيِّن لهم سوء أعمالهم وأعجبوا بأنفسهم واستكبروا عن اتباع الرسول وشمخوا
 بأنوفهم ولم يخضعوا لما جاءهم به وسدوا أبواب النظر عما ينفعهم ولم يقبلوا شيئاً سوى
 ما هم عليه ؛ فما مثابهم إلا مثل من أحاط به سدّان من الأمام والخلف فحجباه عن
 النظر فهو لا يبصر شيئاً .

والخلاصة — إنهم محبوسون في سجن الجهالة ، ممنوعون عن النظر في دلائل
 الأنفس ودلائل الكون ، محرومون عن التأمل فيما حل بمن قبلهم من الأمم الخالية
 والتفكير في العواقب المستقبلية .

ثم ذكر فذلِكَ لما تقدم فقال :

(وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) أى وسواء على هؤلاء الذين
 حق عليهم القول ، إنذارك إياهم وتركه ، فإنه قد طبع الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون ،
 إذ قد خبثت نفوسهم وساء استعدادهم وغُشِّيت أبصارهم فلا تقدر على النظر
 في الدلائل المشاهدة ، ولا تستطيع التأمل في جمال الكون .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

ثم أعقب ذلك ببيان من يتأثر بالإذار فقال :

(إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم)
 أى إنما ينفع إنذارك من آمن بالقرآن واتبع ما فيه من الأحكام وخشى عقاب الله
 قبل حلوله ومعاناة أهواله ، فإنه سبحانه عظيم الرحمة ، أليم العذاب كما قال : « نَبِّئْ
 عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

فبشر هذا الذى اتبع أحكام الدين وخاف العقاب بمغفرة ما فرط منه من
 الزلات ، وأجر كريم ، ونعيم مقيم ، لا يستطيع وصفه مما لاعين رأت ولا أذن
 سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

ثم ذكر ما يؤكد الخشية من الله وخوف عقابه بقوله :

(إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم) أى إنا نحيي الموتى جميعا من قبورهم يوم القيامة ، ونكتب ما أسلفوا من عمل ، وتركوا من أثر حسن بعدهم كعلم علموه أو حبس في سبيل الله وقفوه ، أو مستشفى لنفع الأمة أنشئوه ، أو أثر سيء كفرس الأحقاد والأضغان ، وترتيب مبادئ الشر والعدوان بين الأنام .

روى ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله البجلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيئا ، ثم تلا : وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » والمراد من كتابة ذلك مجازاتهم عليه إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

ثم ذكر أن الضبط والإحصاء لا ينخص أعمال بني آدم ، بل يتناول جميع الأشياء فقال :

(وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) أى وبيننا كل شيء وحفظناه في أصل عظيم يؤتم به ويتبع ولا يخالف ، وهو علمنا الأزل القديم الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ونحو الآية قوله : « عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » وقوله : « وَكُلُّ شَيْءٍ قَعْلُوهُ فِي الزُّبُرِ . وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ » .

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُمُ

مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ ،
 إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦)
 وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا
 لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ،
 إِنَّ ذِكْرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ
 يَسْمَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا
 وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)
 أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ
 شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ
 بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦)
 بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَ لِي مِنَ الْمَكْرَمِينَ .

شرح المفردات

ضرب المثل : يستعمل تارة في تشبيه حال غريبة بأخرى مثلها كما في قوله :
 « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةٌ نُوحٍ » الآية ، ويستعمل أخرى في ذكر
 حال غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تشبيهها بحال أخرى نحو قوله : « وَضَرَبْنَا
 لَكُمْ الْأَمْثَالَ » أى وبيّنا لكم أحوالا غاية في الغرابة كالأمثال ، والقرية : هى
 أنطاكية كما روى عن قتادة وعكرمة ، والمرسلون : هم رسل عيسى من الحوارين ،
 فعرزنا : أى فقوّينا وشدّدنا ، البلاغ المبين : أى التبليغ الواضح الظاهر للرسالة ،

تطيرنا : أى تشاء منا ، لنرجنكم : أى لنرمينكم بالحجارة ، طائركم : أى سبب شؤمكم
مصرفون : أى مجاوزون الحد فى العصيان ، أقصى المدينة : أى أبعد مواضعها ،
يسعى : أى يعدو ويسرع ، لاتغن : أى لاتنفع ، ولا ينقذون : أى لا يخلصونى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن هؤلاء المشركين قد ختم الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون —
أردف ذلك بذكر مثل لقوم حالهم كحالهم فى القلوفى الكفر والإصرار على
التكذيب والاستكبار على الرسل وصم الآذان عن سماع الوعظ والإرشاد ، وهم أهل
قرية أنطاكية ببلاد الشام ، فقد كان قصصهم مع رسل الله كقصص قومك معك
فى العناد والاستكبار والعتو والطغيان .

الإيضاح

(واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) أى واجعل أصحاب قرية
أنطاكية مثلاً لهؤلاء القوم إذ أصروا على تكذيب الرسل الذين أرسلوا إليهم كما أصر
قومك على تكذيبك عنادا واستكبارا .

والمشهور لدى المفسرين ومنهم قتادة وغيره أن الرسل هم رسل عيسى عليه
السلام من الحواريين بعثهم إلى أهل أنطاكية ، وكان منهم ما قصه الله علينا فى كتابه .
ويرى ابن عباس واختاره كثير من جلة العلماء أن الرسل هم رسل الله أرسلهم
رذءا عيسى عليه السلام مقررين لشريعته كهرون لموسى عليه السلام ، ويؤيد ذلك :

(١) قولهم (ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين) .

(٢) إنهم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : (إن أتم إلا بشر مثلنا) .

(٣) إن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم ، فقد كانوا أول أهل مدينة
أمنت بالمسيح ومن ثم كانت إحدى المدن الأربع اللاتى فيها بطارقة ، وهن القدس

وأناطكية والإسكندرية ورومية ، لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم ووطده ، ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا الطريق من رومية إليها .

ثم فصل ما تقدم وزاده بيانا فقال :

(إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون) أى حين أرسلنا إليهم رسولين من عندنا فأسرعوا في تكذيبهما فقوييناها وشددنا أزرها برسول ثالث فقالوا لأهل القرية : إنا إليكم مرسلون من ربكم الذى خلقكم بأن تخلصوا له العبادة وتنبهوا مما تعبدون من الآلهة والأصنام .

والمشهور أن الرسولين الأولين كانا يوحنا وبولس والرسول الثالث شمعون .

ثم ذكر شبهة كثيرا ما تمسك بها المكذبون للرسل من الأمم الماضية .

(قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون) أى قال أصحاب القرية للثلاثة الذين أرسلوا إليهم : ما أنتم إلا بشر مثلنا من غير مزية داعية لاختصاصكم بما تدعون ، وما أنزل الرحمن إليكم رسالة ولا كتابا ولا أمرم فينا بشيء ، ما أنتم إلا كاذبون في قيلكم إنا مرسلون إليكم .

وفى قولهم « ما أنزل الرحمن » إيماء إلى أنهم يعترفون بالالوهية لكنهم ينكرون الرسالة ويتوسلون بالأصنام . وحينئذ رد عليهم الرسل مؤكدين رسالتهم .

(قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) أى فأجابهم الرسل قائلين : الله يعلم إنا رسله إليكم ولو كنا كذبة عليه لا نتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم وستعلمون لمن تكون عقبى الدار ؟

ونحو الآية قوله : « قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

ثم ذكر الرسل ما أمروا به فقالوا :

(وما علينا إلا البلاغ المبين) أى إنما علينا أن نبلاغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإن أطعتم ربكم وكانت لكم سعادة الدارين ، وإن لم تحجبوا فستعلمون عاقبة تكذيبكم حين يحقق بكم الوبال والنكال .

والتبليغ المبين إنما يكون إذا اصطحب بالآيات الباهرة ، والمعجزات الدالة على أنهم رسل من عند الله .

والخلاصة — ما علمنا من جهة ربنا إلا التبليغ المعزز بالآيات البينات وقد فعلنا . فأى شيء تطالبون منا حتى تصدقوا دعوانا ؟ .

ولما ضاقت بهؤلاء المكذبين الخيل وأعيتهم الحجج لجئوا إلى التهديد والوعيد . (قالوا إنا تطيرنا بكم لنن أنتموها للرجنكم ولنيسنكم منا عذاب أليم) أى قالوا إنا نشاءمنا من تبليغكم ودعوتكم ، فقد افتن بعض القوم بكم وتفرقت كلمتنا وانفرط عقد وحدتنا ، ولئن لم تنتهوا عن بث هذه الدعوة بيننا للرجنكم بالحجارة رجما ولنمثلن بكم شر الممثل أو لنعذبكم عذابا شديدا وأتم أحياء .

والخلاصة — إنا إما نقتلكم أو نلقيكم فى غيابات السجون وننكل بكم تنكيلا عظيما .

حينئذ أجابهم الرسل :

(قالوا طأركم معكم) أى قالوا لهم سبب شؤمكم من أفعالكم لا من قبلنا كما تزعمون ، فأنتم أشركتم بالله سواء وأولعتم بالمعاصى واجترحتم السيئات ، أما نحن فلا شؤم من قبلنا ، فإنا لاندعو إلا إلى توحيد الله وإخلاص العباد له والإجابة إليه ، وفى ذلك منتهى المين والبركة .

(أن ذكركم بل أنتم قوم مسرفون) أى أمن جرأ أنا ذكركم وأمرناكم بعبادة الله مخلصين له الدين تقابلوننا بمثل هذا الوعيد ؟ ، بل أنتم قوم ديدنكم الإسراف ومجاورة الحد فى الطغيان ، ومن ثم جاءكم الشؤم ولادخل لرسول الله فى ذلك .

والخلاصة — أتم قوم مسرفون في ضلالكم متدادون في غيكم تتشاءمون بمن
يجب التبرك بهم من هداة الدين ، فقد جعلتم أسباب السعادة أسبابا للشقاء .
ولا يخفى ما في ذلك من شديد التوبيخ وعظيم التهديد والتنبيه إلى سوء صنيعهم
بحرمانهم من الخيرات ، ونحو الآية قوله تعالى بحكاية عن قوم فرعون « فَإِذَا جَاءَتْهُمْ
الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَائَرُهُمْ
عِنْدَ اللَّهِ »

ثم أبان أن الحق لا يعدم نصيرا وأن الله يقيض له من يدافع عنه فقال :
(وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من
لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) أى وجاء من أطراف المدينة رجل يعدو مسرعا لينصح
قومه حين باغى أنهم عقدوا النية على قتل الرسل فتقدم للذب عنهم ابتغاء وجه الله
ونيل ثوابه ، قال يا قوم اتبعوا رسل الله الذين لا يطلبون منكم أجرا على تبليغهم
ولا يطلبون علوا في الأرض ولا فسادا ، وهم سالكون طريق الهداية التي توصل إلى
سعادة الدارين .

روى أن هذا الرجل يسمى حبيبا ، وكان نجارا ، قال ابن أبي ليلى : سباقو
الأمم ثلاثة لم يكفروا قط طرفة عين : علي بن أبي طالب ، وصاحب يس ، ومؤمن
آل فرعون . ورواه الزمخشري حديثا ، وقال ابن كثير إنه حديث منكر .
ثم أبان لهم أنه ما اختار لهم إلا ما اختاره لنفسه فقال :

(وما لي لا أعبد الذى فطرني وإليه ترجعون ؟) أى وما يمنعني من إخلاص
العبادة للذى خلقني ، وإليه المرجع للجزاء يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم إن خيرا
فخير ، وإن شرا فشر .

وفي هذا تقرير لهم بتركهم عبادة الخالق وعبادة غيره ، وتهديد بتخويفهم
بالرجوع إلى شديد العقاب .

ثم أعاد التوبيخ مرة أخرى مبينا عظيم حقهم فقال :

(أأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لاتغن عني شفاعتهم شيئا ولا يتقذون ؟) أى أعبد من دون الله آلهة لاتملك من الأمر شيئا ، وهو لو أرادني بسوء فلا كاشف له إلا هو ، ولا تملك الآلهة دفعه عني ولا منعه .

(إني إذا لفي ضلال مبين) أى إني إذا فعلت ذلك واتخذت من دونه آلهة لفي ضلال يتبين لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل ، فإن إشراك من لا يخلق وليس من شأنه النفع والضرر بمن يخلق وهو القادر على كل شيء - خطأ ظاهر وغلط واضح لدى أرباب الأحلام وذوى الحجى .

ثم التفت إلى الرسل وخاطبهم منيبا إلى ربه فقال :

(إني آمنت بربكم فاسمعون) أى إني آمنت بربكم الذى أرسلكم فاشهدوا لى بذلك عنده .

روى أنه لما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يجد من يدافع عنه . قال قتادة : جعلوا يرحمونه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ، فلم يزالوا به كذلك حتى فارق الحياة .

ثم ذكر ما آل أمره وما قاله حين وجد النعيم والكرامة ، فقال :

(قيل ادخل الجنة ، قال يا ليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) أى قال الله له : ادخل الجنة كفاء ما قدمت من عمل وأسلفت من إحسان ، فلما دخلها وعان ما أكرمه الله به لإيمانه وصبره قال : ليت قومى يعلمون بما أنا فيه من نعيم وخير عيم لإيمانى بربى وتصديقى برسله وصبرى على أذى قومى ، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب المثوبة مثله بالتوبة عن الكفر والدخول فى حظيرة الإيمان والطاعة اتباعا لسنن أولياء الله الذين يكظمون الغيظ ويترحمون على الأعداء .

قال ابن عباس : نصبح قومه حيا بقوله : (يا قوم اتبعوا المرسلين) وبعد مماته
بقوله : (يا ليت قومي يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) .

وإلى هنا وقف القلم فى تفسير هذا الجزء من الكتاب الكريم . وكان الفراغ
منه بمدينة حلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية فى اليوم الثامن عشر من
شعبان سنة أربع وستين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية .
والحمد لله على إحسانه وإنعامه ، وصلّ ربنا على محمد وآله الطيبين الأخيار
وصحبه الأبرار .

فهرس

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٣	مضاعفة ثواب أمهات المؤمنين رضى الله عنهم .
٥	مكاتهن بين النساء وأمرهن بالقرار فى البيوت .
٧	من هم أهل البيت ؟ .
٨	ما أعدده الله للمسلمين والمسلمات من الأجر والكرامة فى الدار الآخرة .
٩	الأوصاف التى يستحق بها عباده الثواب العظيم .
١٠	أى المجاهدين أعظم لله أجراً ؟ . ١١ قصة زينب بنت جحش .
١٢	الحكمة فى زواجه صلى الله عليه وسلم بها .
١٥	ما كانت تفخر به زينب على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم .
١٦	أبوّة محمد صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أبوة تعظيم وإجلال .
١٧	أولاد النبى عليه الصلاة والسلام .
١٩	أمره عليه الصلاة والسلام باحتال أذى المشركين وبالتوكل عليه .
٢٠	لأعدة للمطلقة قبل الدخول .
٢٣	بعض خصائص النبى صلى الله عليه وسلم فى الزواج .
٢٥	تخييره صلى الله عليه وسلم فى مضاجعة من شاء من نسائه .
٢٦	نهيّه صلى الله عليه وسلم عن زواج غير الموجودات معه ، وعن استبدال
٢٧	غيرهن بهن . آية الحجاب وما فيها من أحكام وآداب .
٢٨	النهى عن إزعاج النبى صلى الله عليه وسلم إذا كان فى الخلوة .
٢٩	يحرم اللبث على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم إذا كان فى ذلك أذى لرب البيت .

الصفحة	المبحث
٣٠	قال عمر : وافقت ربي في ثلاث .
٣١	منع المؤمن عن نكاح أزواج النبي صلى الله عليه وسلم .
٣٣	احترام النبي صلى الله عليه وسلم في الملأ الأعلى والملأ الأدنى .
٣٥	من نسب إلى مؤمن أو مؤمنة ما لم يعملها فقد اجترح إنمًا عظيمًا .
٣٧	أمر النساء بالتستر وإرخاء الجلابيب صيانة لمن عن الأذى .
٣٨	توعد الله أصنافًا ثلاثة : بالقتال ، والقتل ، أو النفي من الديار .
٤١	ندم المشركين يوم القيامة وتمنيهم أن لو كانوا أطاعوا الله .
٤٤	الأقوال والأفعال التي تكون سبب الفوز العظيم .
٤٦	فعل التكليف الشرعية وسيلة الظفر والفلاح .
٤٧	أسباب تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم . ٤٨ الأسباب العامة لذلك .
٤٩	الأسباب الخاصة بزواج كل واحدة من أمهات المؤمنين .
٥٢	أسباب إباحة تعدد الزوجات في الإسلام .
٥٣	ما حوته سورة الأحزاب من أغراض ومقاصد .
٥٥	وجه اتصال سورة سبأ بما قبلها .
٥٦	شمول علمه تعالى لكل ما في السموات والأرض .
٥٧	إثبات البعث والجزاء . ٥٨ الحكمة في البعث والجزاء .
٥٩	أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم يعتقدون قيامها وحيثها
٦٠	ما قاله المشركون على سبيل التهمك ممن قال بالبعث .
٦١	ادعائهم أن هذه المقالة لا يقولها إلا مفتر أو مجنون .
٦٢	تنبيههم إلى ما يرون من آثار قدرته تعالى .
٦٣	ما آتى الله داود من فضل ونعمة . ٦٤ تسخير الريح لسليمان .
٦٦	تسخير الجن . ٦٧ الأرضة دلت على موت سليمان عليه السلام .

الصفحة	المبحث
٧٠	عقاب المعرضين عن شكر النعم . ٧١ . سد مأرب — سدّ العریم .
٧٢	الكشف الحديث دل على صدق ما جاء فى القرآن .
٧٣	النعم التى أوتىها السبئيون .
٧٤	عقاب أهل سبأ باتباعهم لوساوس الشيطان .
٧٥	طغيانهم فى الأرض وإفسادهم إلا قليلا منهم .
٧٦	تأنيب قريش على عبادتها الأوثان والأصنام .
٧٨	الشفاعة لا تنفع إلا لمن أذن الله له بها .
٧٩	أمر الرسول بأن يقول للمشركين : على إجرامى وعليكم إجرامكم ، والحاكم بيننا هو الله .
٨٢	رسالة محمد صلى الله عليه وسلم عامة للأسود والأحر .
٨٣	استعجال المشركين للعذاب تهكما وازدراء .
٨٤	إنكار المشركين للقرآن والكتب التى قبله .
٨٥	الحوار الذى بين المشركين ومعبوديتهم يوم القيامة .
٨٦	تسليّة الرسول صلى الله عليه وسلم على إنكار مترقى قومه له ، وبيان أنهم ليسوا ببدع فى ذلك .
٨٨	سعة الرزق لا تدل على رضا الله عن المرء ولا غضبه عليه .
٨٩	العمل الصالح مع الإيمان هو الزانق عند الله .
٩٠	فى الحديث : « اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وممسكاً تلفاً » .
٩١	أكثر المشركين مؤمنون بالجن مصدقون لهم فيما يقولون .
٩٤	قال المشركون : القرآن إفك مفترى وإنه سحر بين .
٩٥	ماردّ به سبحانه على هذه المقالة .
٩٦	طالب الله الكفار بالترث فى هذا الحكم ليعلموا الحق .
٩٧	سبب نزول الآية (تبت يدا أبى لهب) .

الصفحة	المبحث
٩٨	العدة بنشر الإسلام وتبليج نوره .
٩٩	« إنكم لاتدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً » الحديث .
١٠١	أنى لهم الإيمان يوم القيامة وقد كفروا من قبل ؟ .
١٠٤	الأجنحة - فى العالم المادى تساعد على الطيران ، وفى عالم الأرواح ترشد إلى القدرة .
١٠٥	ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من الصلاة و بعد الرفع من الركوع .
١٠٦	الأمر بذكر النعم والشكر عليها .
١٠٧	تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ليس بيدع بين الرسل .
١٠٩	لحزب الشيطان العذاب الشديد ولحزب الله المغفرة .
١١٠	ضرب المثل على تحقق البعث والنشور .
١١٣	لمن سعى فى ضعف الإسلام عذاب شديد والله يحبط عمله .
١١٤	الآجال والأعمار أحصاها الله فى كتاب .
١١٥	البراهين الدالة على الوحدانية والقدرة .
١١٧	النهى على المشركين فى عبادة الأصنام والأوثان .
١١٨	من أصول الدين أن لاتزر وازرة وزر أخرى .
١١٩	البشارة والإنذار إنما تجدى نفعا لدى من يخشى الله .
١٢٠	تسليية الرسول عن عدم قبول المشركين دعوته .
١٢١	لم يترك الله أمة سدى بلا نذير . ١٢٣ الهداية والتوفيق بيد الله سبحانه .
١٢٤	قومك ليسوا بيدع فى الأمم . ١٢٥ الاعتبار بالآيات الكونية .
١٢٦	لا يعلم بديع صنع الله إلا العالم بأسرار الكون .
١٢٨	الذين يتبعون أحكام الدين لهم تجارة لن تبور .
١٢٩	القرآن الكريم مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية .

الصفحة	المبحث
١٣٠	المؤمنون أقسام ثلاثة .
١٣١	المؤمنون حين يدخلون الجنة يقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن .
١٣٢	الكافرون يوم القيامة يطلبون العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً .
١٣٣	ما أجيبوا به عن هذا الطلب . ١٣٤ علم الله تعالى محيط بجميع الأشياء .
١٣٦	تبيكيت المشركين على عبادة الأوثان .
١٣٧	نظام الجاذبية .
١٣٩	إنكارهم لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا مترقبين لها .
١٤٠	تهديد المشركين بحلول العقاب كما حل بمن قبلهم .
١٤١	تسليمهم إلى آثار الغابرين الذين خلوا من قبلهم .
١٤٢	لو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة .
١٤٣	جمل ما حوته سورة فاطر من حكم وأحكام .
١٤٤	وجه اتصال سورة يس بما قبلها .
١٤٥	المراد بيباسين .
١٤٦	جعل الأغلال فى عنق أهل النار .
١٤٧	لا فائدة فى إنذار هؤلاء المشركين .
١٤٨	من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده .
١٤٩	ضرب المثل بأهل أنطاكية .
١٥٠	من رسل الله الذين أرسلوا إلى أهل أنطاكية ؟ .
١٥١	مقالة أهل القرية للرسل .
١٥٢	ما ردّ به الرسل عليهم .
١٥٣	الحق لا يعدم نصيراً .
١٥٤	مال أمر ذلك الواعظ .